القاهرة ... بيروت ... باريس

رواية

ممدوح الشيخ

الكتاب: القاهرة ... بيروت ... باريس (رواية)

المؤلف: ممدوح الشيخ

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٠١٦٢/ ٢٠١٦

الترقيم الدولي: ٩٨٧-٩٧٧-٩٠-٣٩٤٠-٤

الطبعة الثالثة

صدرت الطبعة الأولى منها عن الدار العربية للعلوم – لبنان – (٢٠٠٦)

صدرت الطبعة الثانية منها عبر CREATESPACE.COM – الولايات المتحدة الأمريكية – (٢٠١٢)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ©

لا يجوز إعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله في أي شكل أو بأي وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير أو المسح الضوئي أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع ، كما لا يجوز تعديل المادة الموجودة في الكتاب (أو أي جزء منها) أو تحويرها أو لخلق عمل جديد.

لشراء النسخ الورقية في مصر والدول العربية:

http://www.baitoalqarie.com

هذه الرواية

هذه الرواية، هي الأولى لكاتبها، وقد حصلت على المركز الثالث في الدورة الثانية (٢٠٠٥) للمسابقة السنوية الأدبية التي تنظمها الهيئة العامة لقصور الثقافة ويمنح جوائزها الكاتب المصري الأستاذ أحمد فتحي عامر (مستشار مؤسسة الفكر العربي).

وكانت لجنة تحكيم الرواية في هذه الدورة مكونة من:

الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد الله

الأستاذ بجامعة القاهرة

الأستاذ محمد مستجاب

الروائي المعروف الأستاذ مصطفى عبد الله

مشرف الصفحة الأدبية بجريدة الأخبار.

القاهرة
العاصفة

١

في الصباح تبدو شوارع الأحياء القديمة مـــن القـــاهرة مجهدة وحيية ونابضة بالحياة ففيها، يقبع ما تبقى من روح هــــذه المدينة .. .. ليس فقط من البنايات القديمة بل العلاقات الدافئـــة والأشياء التي تجاهد لتتحفظ لنفسها بموطئ قدم في مدينة تكبر .. وتتغير .. وتزدحم .. وتكفهر .. ولا تشيخ.

وكلما ازدادت المسافة بين الأحياء الراقية الجديدة الـــتي ترسم صور القاهرة الحديثة اقتربت هذه الأحياء القديمـــة مـــن المتحف المفتوح، فكأن سكانها في مقاهيهم القديمة .. وحوانيتهم المتواضعة الضيقة .. وشرفات منازلهم المتآكلة وشوارعهم المليئة بالحفر يقدمون عرضاً طبيعياً لصورة زمان ولَّـــــى، وعنـــدما يزور القاهريون الأكثر حداثة، هذا المكان/ الزمان إنما يريد كل

منهم أن يرى صورة ماضيه بحنين لاعقلاني ممزوج بالتعالي والإشفاق على سكانها، بينما سكانها مقتنعون بشكل راسخ بأنهم في المكان الذي ينبغي أن يكونوا فيه. . . وهم من ثم يستخدمون كثيرا تشبيه علاقة السمك بالماء لوصف علاقتهم بعالمهم.

وفي هذه الأحياء تبدو القاهرة أقل تغولاً وقسوة .. وأكثر إنسانية.

وعندما تشرق الشمس على شارع زهران المتفرع من شارع حسن الأكبر بحي عابدين تتشكل بالتدريج لوحة بديعة من الناس والحجارة والعربات، ويشترك معظم أصحاب الحوانيت في الشارع الصغير في طقوس لا تكاد تختلف .. تحيات مثقلة بالخدر... قليل من الماء يرشه كل منهم أمام بابه... أدعية بالبركة والرزق، ويبدأ صرير الأبواب يتوالى واحداً تلو آخر لتكتمل صورة الشارع.

"صباح الخير يا أستاذ محسن"

ألقاها بنبرة ودود حسن عامل المقهى وخدر النوم يطل من عينيه راسما خطوطاً بارزة وغائرة في وجه خشن الملامح تتماهى سمرته المختلطة باصفرار واضح مع لون الفوطة التي يرتديها فوق قميص وسروال رخيصين وكانت ذات يوم بيضاء.

يرتب حسن المقاعد والمناضد فوق الرصيف أمام المقهى، وتتوزع نظراته بين الرصيف والشاب المار أمامه الذي بادره التحية بالإشارة وهو يتجه إلى باب خشبي عريض مطلي بلون داكن تبدو عليه علامات الزمن خدوشا وخربشات غير منتظمة.

فتح محسن قفل الباب ودخل إلى المكتب ليمارس طقوسه اليومية... فتح باباً من الألوميتال يقسم المكتب نصفين، ففي النصف الداخلي يوجد مكتب صاحب الشركة. فتح نافذة مكتب صاحب الشركة ليدخلها هواء جديد .. أخرج سلة المهملات لإفراغها من محتويات اليوم السابق، وأعاد النظام للمكتب الصغير ذي المظهر المتواضع ثم عاد إلى القسم الخارجي حيث مكتبه هو. التقط منفضة من الريش واتجه للباب الخارجي

ومررها على اللافتة الخارجية ليزيل الغبار عنها. ألقى نظرة عابرة على خط الثلث الأنيق الذي كتبت به اللافتة، أعاد المنفضة إلى مكانها على المسمار المختبئ وراء الباب الخشبي للمحل.

دب النشاط في جسده بالتدريج فهو منذ تخرَّج في كلية التجارة قبل أحد عشر عاماً اعتاد جسده على دورة من النشاط والاسترخاء تكاد تكون ثابتة، وعالمه محصور بين البيت الذي يبعد عدة أمتار من مكان عمله والمقهى المواجه، سنوات عمره التي تقترب من منتصف العقد الرابع من العمر لا يعكسها مظهره، فالنظارة والكرش الواضح يضفيان عليه مظهر رجل يقترب من الخمسين. جلس محسن خلف مكتبه المعدني المواجه تماما للباب، وجاءه عامل المقهى بمشروب الصباح، فنجان قهوة تركي معد بعناية لزبون دائم، وضع القهوجي فنجان القهوة وانسحب في هدوء. استدار محسن ناحية الهاتف وأدار القرص ..
.. فجاءه الرد من الطرف الأخر سريعاً:

"صباح الخير يا فؤاد بيه"

"الحمد لله"

"اطمئن يا افندم فلم أنصرف بـالأمس إلا بعـد أن دخلت البضاعة كلها المخازن .. يبقى الآن فقط طباعة غلاف العلبة والمطبعة جاهزة للعمل"

"أوامرك يا فؤاد بيه .. سأرسل إليه فوراً"

مد محسن رقبته يحاول اقتناص القهوجي الذي يتحـرك كالبندول ولا يستقر في مكان، وانتبه القهوجي فهرول إليه ومد يده بشكل آلي، ليأخذ فنجان القهوة فأشار إليه محسن أن يتركه:

"لا .. لم أشرب القهوة بعد ..أريد منك أن ترسل لي عم شفيق الخطاط بمجرد أن يظهر ..فاهم؟"

أومأ العامل برأسه وانسحب تحت ضغط تصفيق الزبائن الذي لا ينقطع. خرج حسن وأخرج محسن من أحـد الأدراج ملفاً من الأوراق وانهمك في القراءة .. ثم أخرج الآلة الحاسـبة

وبدأ ينقل عينيه بكفاءة بين الأوراق وشاشة الآلة الحاسبة. كـــل شيء يشير إلى يوم عمل شاق ومهمة تستغرق كل تركيزه.

دق جرس الهاتف فرفع محسن السماعة مسرعاً:

"آلو"

"نعم .. شركة أسواق الشرق العربي لاستيراد الأغذية .. لا فؤاد يه غير موجود".

"ربما لا يأتي اليوم .. .. فهو مشغول بارتباطات خارج المكتب".

"إذا أرسلتم أمر التوريد اليوم يمكـــن أن تســـتلموا البضاعة بعد غد صباحاً".

"لا .. لا .. بالفاكس، الهاتف لا يصلح".

"نفس الرقم .. سأفتح لك الفاكس".

استدار وفتح الفاكس ووضع سماعة الهاتف والتفت إلى المكتب متأهبا لمواصلة الغرق في الأوراق والأرقام، فوجد عجوزاً يجلس على المقعد المواجه للمكتب ..

عم شفيق الخطاط. وجه فيه إحساس غريب بالطمأنينة والغربة معاً. تجاوز السبعين بعدة سنوات قضى الشطر الأكبر منها على منضدة في هذا المقهى حيث يمارس عمله الذي فرض عليه انحناءة صارت تميز قوامه ونظارة سميكة وآثار حبر متفرقة على يديه. جاء صوت العم شفيق هادئاً دافئاً:

"كنتَ منهمكا في الرد على التليفون، وكانت فرصة لأن ألتقط أنا أنفاسي".

"ربنا يقويك يا عم شفيق .. .. فؤاد بيه كما تعلم لا تقنعه خطوط الكومبيوتر ويصر على أن تكتب بنفسك كل ما نحتاج إليه. ونحن نحتاج منك بسرعة أن تكتب لنا بيانات منتج جديد نريد أن يترل الأسواق بأقصى سرعة، باختصار يا عم شفيق ... الموضوع كله متوقف عليك."

دخل القهوجي ووضع فنجاناً من القهوة أمام الرجــل العجوز، وانهمك محسن في البحث عن ورقـة البيانـات الـتي سيكتبها الخطاط من درج إلى آخر فقال له العم شـفيق بنـبرة واثقة:

"البيانات معروفة يا أستاذ محسن، فأنا منذ ثلاثين عاماً أعمل مع فؤاد بيه، وقبله مع أبيه الله يرحمـه .. .. لا تجهـد نفسك في البحث."

رفع محسن رأسه وابتسم وبدا أنه يريد أن يلاطف الرجل العجوز، فابتسم وقال في نبرة ودود:

"ثلاثين سنة يا راجل يا عجوز؟"

ضحكا، فقال محسن:

"ألم تجرب الكتابة بالكومبيوتر يا عم شفيق؟"

فقال شفيق وهو يرشف فنجان القهوة:

"جربت .. عندما ظهر كنت من أوائل من تعاملوا معه، وحاولت استخدامه في إنتاج لوحات تجمع بين دقة الآلة ورقة الإنسان، لكنني اكتشفت في النهاية أنه آلة .. .. آلة بلا روح".

اتسعت عينا محسن الجامعي نصف المثقف من الدهشة وهو يسمع هذا العجوز البسيط المظهر يتحدث عن الرقة والدقة والإنسان والآلة. وقطع العم شفيق دهشته:

"لا تندهش يا بني .. .. أم أقول لك يا أستاذ محسن؟"

واكتست ملامح محسن، رغم إحساسه المفرط بالانشغال وضيق الوقت، ببشاشة واضحة:

"لا يا عم شفيق بل أنت الذي يستحق عن جدارة وصف الأستاذ... تفضل أكمل كلامك".

رشف شفيق رشفة أخرى من فنجان القهوة وأشار إلى لوحة معلقة على جدر المكتب خلف محسن وقال:

"انظر إلى هذه اللوحة"

والتفت محسن إليها، وشعر وهو الذي يقضـــي شـــطر النهار في المكتب يومياً لسنوات، إنه للمرة الأولى يراها بوصفها لوحة، كانت نبرات عم شفيق في حد ذاتها دعوة يصعب رفضها للتأمل والتأني. وقبل أن يكمل شفيق كلامه دق جرس الهـــاتف فرفع محسن السماعة بشكل آلي، وبدا من الحوار بوضـــوح أن المتحدث يستعجل ورقة البيانات التي سيكتبها عم شـــفيق وأن المطبعة تنتظرها.

أخرجت المكالمة محسن من حوار لم تألفه أذناه ، حوار جعله يقدر هذا العجوز تقديراً مختلفاً وينظر للخطوط التي تركتها السنون على ملامحه نظرة أخرى . . . نبهته المكالمة بحدة إلى أن الوقت أضيق من أن يحتمل مثل هذه المناقشات المسترخية، حتى لو كانت ممتعة، ترجم إحساسه فوراً بشـــكل لا شـــعوري إلى تلطف واضح لإنهاء المناقشة:

"لا مؤاخذة يا عم شفيق .. كما ترى المطبعة تنتظـــر وصول ورقة البيانات".

"وأنا جاهز إن شاء الله"

قالها شفيق وهو يأخذ الرشفة الأخيرة من الفنجان ويهم بالقيام متثاقلاً.

٢

خرج العم شفيق واتجه للمقهى ليجلس على منضـــدة بعينها اعتاد منذ سنوات أن يجلس عليها ليمارس عمله، حدق في المنضدة فرأى في بقايا الحبر الذي يلطخها في خطوط متقاطعـــة سنوات عمره. تحسست أنامله قطعة الرخام والهيكل المعدني في ألفة غامرة وهطلت الذكريات كأنها مطر غزير... فمنذ سنوات لم يعبر الجسر الفاصل بين المهنة والفن و لم يخُـــض نقاشاً من هذا

النوع، أحياناً يشعر العم شفيق أنــه هُــزم وتحــول إلى مجــرد "**صنايعي**" وجاء هذا الحوار العابر لينكأ جرحاً شديد العمق.

"الفن أنبل ما في التاريخ البشري"

هذه العبارة التي سمعها شفيق من مُدرِّسه يــوم التحــق للمرة الأولى بمدرسة الخطوط العربية بشارع نوبار شاباً صــغيراً يبحث عمن يعلمه كيف يصبح خطه الجميل مصدر دخل يرتزق منه. ومرت السنوات قبل أن يعرف شفيق أن هذا الـــمُدرِّس العجوز فنان عظيم أعطى عمره لفن الخط والزخرفة، وأدرك في نهاية رحلته أن الزمن ليس زمنه فوهب عمره للحبر، وقنع بــأن ينقل شيئاً من النبل للأجيال القادمة .. .. تحسست يده الخطوط والنقاط المتشابكة وتمتم:

"الله يرحمك يــا أســتاذ حامــد .. .. الله يرحمــك ويسامحك".

وبدأ صوت داخلي ينساب في أعماقه مستعرضاً رحلة العمر:

"كان هدفك يا أستاذ حامد أن تضع على كاهل كل تلميذ من تلاميذك مسئولية الدفاع عن النبل في هذا العـــالم .. .. لكنك دون أن تقصد وضعت على كواهلنا الضعيفة كـــل التاريخ البشري .. .. ربما لم تتخيل أن يأتي يوم يتحول فيـــه الناس من جهل النبل أو تجاهله أو الاستخفاف به إلى كراهيته .. بل إلى الرغبة في قتله .. هذه هي الحقيقة يا أستاذ حامد... البشري أصبح كل طموحه أن يقتل بشريته ويؤكد حيوانيته"

اقترب القهوجي من شفيق حاملا حقيبة جلدية عـــدت عليها عوادي الزمن، وإن لم يخلُ مظهرها من آثار عز انـــدثر، وضع الحقيبة وهو يمر حاملاً في يده الأخرى بعض المشـــروبات فأسقطها في حرفية المعتاد ومرق. تناول شفيق حقيبته وقد استبد به وجدٌ غريب اعتصره اعتصاراً، حـــاول أن يخـــرج أشـــياءه بالترتيب المعتاد والعناية نفسها لكن يداه خانتاه.

وبالتدريج بددت الخواطر المتدفقة سكينته كان موزعـــاً بين ذكريات دافئة ومرارة لم تفارقه منذ انتهى به مشوار الطموح

والأمل على مقعد في مقهى صغير، يبحث عن قوت يومه، مولياً ظهره لعالم كان أسبق منه في الانصراف عنه وعن موهبته. غالب الرجل العجوز اضطرابه شيئاً ما وبدأ يكتب.

وسكنت ملامحه بعد لحظات، ثم سكنت جوارحه إلا من حركة أنامله الدقيقة كأنها مبضع جراح .. .. وصار معطل الحواس لا يشعر إلا بحركة الريشة وسنها الدقيق، حتى أخرجه من عزلته محسن بصوته الجهوري وهو يحدثه مقترباً منه في تعجل شديد:

"الله يا عم شفيق"

قالها حتى قبل أن يرى ما خطّه الرجل بسن الريشة الدقيق .. وأكمل بصوت أقل ارتفاعاً:

"كان عندك حق يا عم شفيق .. .. كأنني أرى اللوحة لأول مرة".

ارتسمت على وجه العم شفيق ابتسامة عريضة وهـــو يشعر هو الآخر، لأول مرة منذ سنوات، أنه ليس وحده في عالمه الفريد .. .. أصبح الآن يأمل أن يجد من يشاركه حمل عـــبء التاريخ البشري، وقال لمحسن:

"الآن أحسست بالبعد الإنساني فيه .. .. لأنه بشري، فيه قبس إلهي"

. . .. انطلقت الكلمة من بين شفتي محســـن محملـــة بصدق حاد كالنصل:

"الله يا عم شفيق .. .." .

وسريعاً استعاد محسن إحساسه بالتعجل وضيق الوقـــت فقال:

"لابد أن تكون لنا جلسة أخرى أسمعك فيها بعيدا عن مشاغل العمل".

تحولت صوت محسن إلى نبرة أكثر جدية، وقال:

"اسمع يا عم شفيق .. هذه الورقة فيها البيانات الجديدة .."

ثم قال بلهجة تقريرية:

"طبعا أنت تعرف بيانات الشركة كلها وتاريخ الصلاحية وما إلى ذلك .. أنا مضطر للانصراف فورا، الساعي عند فؤاد بيه في المترل وسيعود إلى الشركة خلال ساعة، أعطه الورقة بعد أن تكتب وهو يعرف ماذا يجب أن يفعل".

كان الكلام يتوالى يدفع بعضه بعضاً دون فرصة للرد فأومأ لمحسن، وأدرك أن الوقت من الضيق بحيث لا يتسع لأي نقاش ولا يحتمل استرسالاً في التأمل. تناول ورقة البيانات وبدأ يقرأ:

"لحم بقري مجمد"

"المنشأ تايلند"

"الصلاحية .. ..

وتلاشت الكلمات من أمام عينيه وبدأ يغرق في خواطره مرة أخرى .. عبارات بعينها حفرها الأستاذ حامد حفرا في وجدان العم شفيق وعقله، وبقيت كلمة واحدة تتردد على مسامعه .. .. كلمة واحدة "**بشري**" . . "**بشري**" .. وسيطر على العجوز إحساس بأن الخواطر استضعفته، ورأت خطوط الزمن على جبهته ورعشة يديه فطمعت أن تهزمه. واستجمع قوته – أو هكذا تصور – وبدأ يصارع في منازلة غير متكافئة. أنجز شفيق المهمة وحمل الأوراق إلى مكتب الشركة فخرج الساعي لاستقباله في توقير يليق بشيبته، فكلمات الترحيب تتوالى واليد تمتد لتعين الرجل على الاستقرار على مقعده. مد شفيق يده للساعي بالأوراق، فأخذها الساعي بعد أن استأذن العم شفيق ، وطار للمطبعة وتركه، بعد أن طلب له كوباً من الشاي من المقهى.

٣

دارت ماكينات الطباعة، وانتقلت الأوراق في سرعة وتوتر بين أيدي العمال الأميين، وكان تأخير عم شفيق في الكتابة سبباً في انصراف صاحب المطبعة نفسه، مطمئناً إلى مهارة عماله وخبرة العم شفيق. حملت الأوراق المطبوعة على سيارة لنقلها للمخازن، وهدأ رنين الهاتف المتوالي بعد أن اطمأن فؤاد بيه إلى بدء المرحلة الأخيرة من تجهيز المنتج، وجلس محسن في المكتب يتلقى أوامر التوريد ويكتب الفواتير، والعمال في المخازن في سهرة خاصة طالما سهروها مع كل منتج جديد يتم تجهيزه.

دق جرس الهاتف ورفع محسن السماعة، جاءه صوت فؤاد بيه واضحا فخلع النظارة وفرك عينيه المنتفختين المجهدتين من طول التحديق في الأوراق وشاشة الآلة الحاسبة. نظر إلى ساعة الحائط المعلقة خلفه ولم ينتبه إلا في هذه اللحظة أن

الساعة تجاوزت الثانية صباحا بقليل. أوقف جرس الهاتف حركة الماكينة المكوكية بين شاشة الآلة الحاسبة والأوراق المتناثرة .. وخرج صوت محسن مجهدا نصف مبحوح.

انتهت المكالمة سريعا فأنعشته لأنها حملت وعدا بالراحة، فبإمكانه أن يستريح في البيت غدا لأن الباقي من عمليات الشحن والتسليم لا تحتاج وجوده. وحمل محسن مفاتيحه وغادر المكان، مشيراً لأحد العمال أن يغلق الباب.

٤

عاد محسن من الإجازة القصيرة وهو يشعر بخمول لذيذ ويحاول أن يستعيد قدرة الآلة شيئاً فشيئاً. فتح الباب ونظر أمامه فرأى لوحة الخط المعلقة على الحائط منذ سنوات، تذكَّر كلام شفيق فتأملها وشعر أن التأمل نفسه يحتاج إلى تعوُّد. بدأ محسن في ممارسته طقوسه اليومية .. جلس على كرسيه وقفزت

لذهنه فكرة، أتكون الطقوس اليومية التي أمارسها منذ سنوات هي التي تحجب عني ما يراه رجل مثل عم شفيق؟

دخل عامل القهوة ووضع الفنجان اليومي أمام محسن الذي لم يستكمل دورة الحركة الروتينية، فلم يفتح مكتب صاحب الشركة ولا أفرغ سلة المهملات .. .. انسحب حسن وفي يده الصينية في هدوء فقال محسن مستوقفاً:

"هل جاء عم شفيق؟"

فقال العامل: **"نعم"**

رد محسن بنبرة متحمسة:

"فأحضر له قهوته ليشربها معي هنا".

دخل العم شفيق فحيا محسن وجلس وهو يشعر بألفة تنمو بينهما شيئاً فشيئاً، والتفت محسن إلى اللوحة المعلقة خلفه على الجدار وسأل:

"منذ متى كتبت هذه اللوحة يا عم شفيق؟".

ابتسم الرجل وقال بلهجة تعليمية يغلفها الود الشديد:

"أولاً يجب أن تواجه اللوحة حتى تستطيع أن تتذوقها، فالعمل الفني كالإنسان لا تستطيع أن تنفذ إلى قلبه، ما لم تجعل عينيك في عينيه بشكل مباشر".

اندهش محسن وهو يسمع كلمات الرجل العجوز والدفء الغامر في أحرفها والعمق الشديد في معانيها:

"ألهذه الدرجة تحب الفن يا عم شفيق؟"

"الفن شيء نبيل يا أستاذ محسن، والنبل أجدر الأشياء بالاحتفاء في هذا العالم .. .. وهو من نتائج تكريم الله للإنسان .. .. وفي حدود علمنا فليس للكائنات الأخرى فنون".

زال الحاجز تماماً بين السامع والمتكلم، وكشف العم شفيق عن المثقف في داخله، واستخدم معجماً لم يسمعه محسن على لسانه قبل الآن. شعر محسن أن عليه أن يتعلم وأن يجلس من شفيق مجلس التلميذ من أستاذه.

ترك العم شفيق حديث الفن وسأل محسن:

"ما مؤهلك يا أستاذ محسن؟"

ورد "**بكالوريوس تجارة و** .. .."

وضاع صوت محسن فجأة .. .. وانتبها معاً على صوت سيارة شرطة تطلق نفيرها وتتجه مسرعة ناحية الشـــركة مـــثيرة سحابة كثيفة من الغبار وتظاهرة من النظرات المتسائلة في الشارع الهادئ.

وقفت السيارة أمام باب الشركة ونزل منها عدد كـــبير من الجنود أحاط بعضهم بالباب وانتشر آخرون داخل المكتـــب. عقدت المفاجأة لسان محسن ووقف بشكل لا شعوري بينما العم شفيق يجلس في سكون مترقباً... كانت ملامح الضابط الذي نزل من السيارة واتجه نحو الباب، توحي بالصرامة لدرجة مخيفة.

ابتلع محسن ريقه وتكلم بصعوبة:

"خير يا أفندم؟"

"أنت صاحب الشركة؟"

قالها الضابط كما لو كانت مقدمة لكارثة، فرد محسن متلعثماً:

"لا .. لا يا أفندم .. .. صاحب الشركة فؤاد بيه عبد القادر وهو غير موجود".

بدأ الضابط يتحرك متفحصاً كل شئ في صمت دون أن يتخلى عن صرامته، وقال في تهكُّم لا يخلو من عدوانية:

"وأنت ماذا تعمل؟"

"محاسب يا أفندم"

"وأين صاحب الشركة؟"

"في المترل يا أفندم"

قالها محسن وهو يمد يده إلى الهاتف، وبدا وهو يحاول تهدئة الضابط كما لو كان يترع فتيل قنبلة توشك أن تطيح برأسه.

طلب الرقم في ارتباك شديد وانتظر أن يـــرد الطـــرف الآخر لحظات مرت كأنها أيام، وهو يختلس النظـــر للضـــابط وكأنه يتوقع أن يطلق عليه الرصاص دون تحقيق أو محاكمة بل حتى دون أن يعرف ما تهمته.

"فؤاد بيه"

قالها كأنه انتشل من الغرق

"ضابط يسأل عن حضرتك يا أفندم"، وقبل أن يكمل كلامه انتزع منه الضابط منه سماعة الهاتف بعنف وقال بلهجـــة آمرة:

"أنت مطلوب في النيابة حالاً"

"عندما تذهب ستعرف"

"نيابة جنوب القاهرة . . . . ومعـــي أمـــر بـــإغلاق الشركة سأنفذه فوراً".

أعطى الضابط السماعة لمحسن وصوت فؤاد مسـموع بوضوح يحاول أن يتفاهم معه، ووضع محسن السماعة على أذنه وهو مذهول مما يحدث ثم وضعها لينهي المكالمة. تأبط محسن عم شفيق الذي بقي صامتا لا يدري ماذا يفعل وخرجا .. .. فأشار الضابط للجنود فخرجوا وأغلقوا الباب .. .. ووضعوا عليـه أختام الشمع الأحمر.

وتلاشى غبار انطلاق السيارة وهي تغادر المكان . .. . وبقيت الأسئلة.

القاهرة

الكهف

١

غادر فؤاد عبد القادر مترله مبكراً، على غير عادته، دون أن يتهاون في شيء من مظهره المتأنق دائماً. فهو، وإن كـــان في النصف الثاني من العقد السادس من العمر، إلا أنه يردد منذ فترة أنه في المرحلة التي سيقطف فيها ثمرة سنوات العـــرق، ركـــب سيارته الميتسوبيشي السوداء الجديدة وأدار محركها وامتدت يده لتفتح الراديو، كما اعتاد يومياً، غير أنه كان راغباً في أن يفكر في المفاجأة التي تنتظره فأغلقه بشكل عصبي، مرت الدقائق بطيئـــة عصية مرعبة حتى وصل إلى نيابة جنوب القاهرة.

نزل من سيارته أمام مبنى النيابة ودلف إليه كأنه يدخل كهفاً ضخماً مليئاً بالخفافيش، رعب .. رعب غريب لا يدري له سببا كان يجتاحه .. .. كأنه يساق مقيداً إلى مذبح، ليقدم قرباناً لأله يوناني أرعن لا يرضيه إلا إنزال الكوارث بأي برئ.

زاغ بصر فؤاد وهو يبحث في الممر الطويل نصف المعتم عن مصدر للإحساس بالأمن .. .. وجه يعرفـــه .. .. صـــوت يناديه .. أي بصيص من نور في هذا الكهف المظلم.

امتلأت أذناه بطنين خفافيش فصار يرفع يده بشكل لا شعوري كل فترة، ليتقي خطراً لا يعـــرف مصـــدره، لم تمـــر اللحظات ثقيلة، بل لم تمر مطلقاً .. .. توقـّــــــف الـــزمن، وكادت تتوقف معه دقات قلبه ثم تســـارعت الـــدقات وازداد الخفقان. فكر فؤاد عبد القادر للحظات أن يستدير ويخرج مـــن باب المبنى ويهرول هارباً.

لكن إلى أين يهرب؟

وممَ يهرب؟

إنه الحدس الملعون الذي استولى عليه منذ دق جـــرس الهاتف بالمكالمة المشئومة، وبدأ يكلم نفسه دون أن يدري:

"إحساسك لا يكذبك يا فؤاد .. .. لقــد انزلقــت قدمك في بئر لا قرار لها"

وعملت غريزة البقاء عملها فحاول أن يطمئن نفسه:

"ما كل هذا الرعب يا رجل؟"

ثم ربتت يد على كتفه فانتفض كعصفور مذعور هاجمه المطر وهو بعيد عن عشه .. .. وتفصـــــّد العرق من جبينـــه غزيراً بارداً. لم يكن في حاجة إلى مرآة ليرى وجهه فيها فقـــد رأى ملامحه في نظرة محاميه الذي اتسعت عيناه من الدهشة.

"ما كل هذا الإحساس المخيف الذي يكسو ملامحك يا فؤاد بيه؟"

وخرجت الكلمات من بين شفتي فؤاد عبـــد القـــادر ممزوجة بالأسى والضعف:

"لا أدري يا أستاذ خالــد .. .. إحســاس بــالخوف الشديد لم يفارقني منذ كلمت الضابط الذي أغلق مقر الشركة .. .. وما يزيد خوفي أنني اعتدت ألا يكذبني إحساسي".

مد خالد يده في جيبه في هدوء وأخرج منديلاً جففه به عرق فؤاد بيه برقة، وأخذ يحدثه في هدوء وثقة:

"اسمع يا فؤاد .. .. نحن مرتبطان بعلاقــات عمــل وصداقة منذ أكثر من خمسة عشر سنة .. .. وأنا أعرفك جيداً .. .. كما أنني محاميك وبحكم هذه العلاقة أنا مُـطّـلع على الموقف القانوني لكل أنشطة الشركة وهذا مطمئن .. .. أما هواجسك فلا مبرر لها على الإطلاق، وينبغي ألا تستسلم لها".

هدأ فؤاد عبد القادر إلى حدٍ ما، وبدأ يستجمع شجاعته وقال لمحاميه:

"اسمع يا خالد .. .. رغم أنني لم أرتكب في حياتي عملاً غير قانوني مهما كان بسيطاً منذ أن ورثت هذه الشركة عن أبي، إلا أنني أحس بسحاب أسود كثيف يقترب مني ويوشك أن يحيط بحياتي".

قالها فؤاد وعيناه ثابتتان وغائمتان.

"هذا الذي تقوله غريب يا فؤاد"

وغيَّر خالد – عمداً – نبرة صوته لتكون أكثر عقلانية:

"ولكن ما علينا .. .. اسمع يا فؤاد .. هل هناك أي شواهد تجعلك تستسلم لهذا الحدس؟".

بلع فؤاد ريقه بصعوبة ولم يجب، وبدأ خالد نفسه يتسرب إلى نفسه شئ من القلق فقال:

"كمحامٍ ليس لدي ما أقوله .. .. لكن كإنسان لدي الكثير لأقوله".

أمسك خالد بذراع فؤاد برفق ليستنبت شيئاً من الطمأنينة في صحراء خوفه المظلمة، وقال:

"العلاقة بيننا أعمق بكثير من علاقة المحامي وموكله .. .. وهذا الشعر الأبيض الذي نبت في رأس كلينا شاهد على هذه العلاقة .. .. حدثني كصديق".

راح فؤاد عبد القادر في عالم بعيد وتكلم كما لو كان يصرخ من بئر عميق:

"منذ أيام رأيت حلماً فظيعاً كنت فيه حبيس كهف مظلم مليء بالخفافيش .. .. كان حلماً فظيعاً تكرر مرات عديدة بالتفاصيل نفسها .. .. وصار مشهد الخفافيش وهي تلطم وجهي يطاردني في صحوي، بل أحياناً لا يفارقني".

أخفى خالد تأثراً واضحاً بدا على ملامحه وقال:

"أنت يمكن أن تكون معذوراً إلى حد ما فهذا حلم مخيف .. .. ولكن ينبغي ألا يسيطر عليك".

"كيف لا يسيطر على يا خالد؟ لقد سمعت أصـــوات أجنحة الخفافيش وأنا أدخل هذا المبنى؟".

قطع خالد استرسال الحديث وقال:

"لولا ما سيطر عليك من توتر لما كان هـــذا المكـــان ملائماً لدردشة من هذا النوع".

قاطعه فؤاد بنظرة منكسرة قائلاً:

"أدبك يمنعك أن تسمي الأشياء بأسمائها .. . لـــيس توتراً بل رعب .. رعب يا خالد".

"وأنا سأبدد لك هذا الرعب"

قالها المحامي وهو يدفع موكله برفق في اتجـــاه مكتـــب وكيل النيابة:

"لقد دخلت إلى وكيل النيابة قبل حضورك وناقشـــته .. بشكل ودي وعرفت أن المشكلة بسيطة بل مضحكة".

وسارا متمهلين نحو مكتب وكيل النيابة.

وبلهفة من رد إلى الحياة من على منصة الإعدام قال فؤاد بلفهة شديدة:

"أرجوك يا خالد بدون مقدمات"

"اسمع يا سيدي .. .. اللحم البقري الذي استوردتموه أخيرا نزل الأسواق مكتوبا عليه (لحم بشري مجمد) .. ..

"يا نهار أسود"

انطلقت كالرصاصة الطائشة من بين شفتي فؤاد، وتوقف بشكل لا إرادي واستند للحائط. وأكمل خالد كلامه:

"وطبعاً أثار الموضوع رعباً عند أول مستهلك انتبه للعبارة .. .. والتقطها صحفي فكتب خبراً صغير في باب مخصص للطرائف، والباقي يمكن استنتاجه بسهولة، وطبعاً جهات التحقيق تشددت في إجراءاتها بسبب حساسية الموضوع".

"الله يسامحك يا عم شفيق"

قالها فؤاد وانتقلت لهجته من الخوف للأسى الممزوج بالغضب:

"غلطة غبية سوف تكلفنا الكثير"

قاطعه خالد مدفوعاً بالإحساس بضيق الوقت:

"فؤاد بيه .. .. المهم الآن إغلاق التحقيق الرسمي، وطبعاً قرار الإغلاق غير قانوني لكنه صدر ليوقف حالة الإثارة الشديدة التي صنعها الاهتمام الإعلامي، وكيل النيابة سيأخذ أقوالك وأقوال الخطاط .. محسن كان هنا وأرسلته ليستدعيه فوراً .. .. التكييف القانوني لن يكون مشكلة بإذن الله رغم غرابة الموقف كله .. .. وعموماً وكيل النيابة لا يملك حفظ التحقيق إلا بعد تقرير المعمل".

وصار وجه فؤاد كالبحر الهائج يتقلب من إحساس لآخر .. .. وكلها أحاسيس عاصفة، وصرخ كمن لدغه عقرب:

"المعمل؟!"

وأصبح الحوار بينهما كمباراة تنس طاولة متوترة سريعة الإيقاع.

عاد خالد للهجة التهدئة وقال:

"هذه مجرد إجراءات يا فؤاد، والمنتج خرج من الحجر الصحي بمستندات سليمة".

استسلم فؤاد عبد القادر للتداعيات المتلاحقة بإحساس قدري عميق وحزين في آن، وقال بلهجة يائسة:

"وماذا أيضاً؟"

فرد خالد محاولاً إضحاكه:

"ثم تصدر وزارة الداخلية بياناً رسمياً يوضح للناس أن ما حدث خطأ غير مقصود .. .. وهذا طبعاً سيكون إعلانـــاً مجانياً لم تحلم به".

وابتلعهما الكهف .. ..

٢

ابتسم فؤاد ابتسامة شاحبة مغالباً مشاعره الهادرة واتجه مع خالد إلى مكتب وكيل النيابة، وبدأت أصوات مختلطة تحجب عن كل منهما صوت الآخر وفجأة وجدا أمامهما شاباً يسد عليهما الطريق ويفرض نفسه عليهما بصفاقة:

"خالد بيه"

والتفت ناحية فؤاد عبد القادر:

"أكيد حضرته فؤاد بيه عبد القادر".

أزاحه خالد بيده وهو يكمل حديثه:

"هي الأحمدي يا أفندم صحفي بجريدة (المشهد المصري)".

وهمس خالد في أذن فؤاد وهما يتقدمان نحو المكتب المغلق، ناصحاً بعدم الإدلاء بأي تصريحات صحفية لأي شخص،

فالصحافة غول يمكن أن يبتلعه، وشفع خالد نصيحته بتأكيد أن هذا الصحفي بالذات هو الذي أثار كل هذه الضجة . .. وانفتح الباب وابتلع خالد وفؤاد إلى حيث المجهول.

لم ييأس بهي الأحمدي من إمكانية الخروج من هذه القضية بخبطة صحفية كبيرة. فهو قبل أن يكون صحفياً، ابن عبد الهادي الأحمدي أحد أكبر رجال الأعمال في مصر، ويعرف كيف يفكر هؤلاء التجار وكيف يستنطقهم، وماذا تخفي سراديبهم:

"لولا هذا المحامي ابن الـ .. ولكن لا بأس .. .. أمامي وقت كافٍ حتى خروجهم من مكتب وكيل النيابة لأجمع بعض المعلومات عن فؤاد عبد القادر وشركته".

كثيرون ممن يعملون في هذا المبنى يعرفون بهي صحفي الحوادث الشاطر السخي خفيف الظل، وكلها أسلحة لها مفعول السحر. حوَّم بهي حول بعض كتبة النيابة وموظفيها فلم يخرج بشيء مفيد بسبب غرابة البلاغ.

وطال بقاء خالد وفؤاد بالداخل فاحتسى بهي عدة أكواب من الشاي مضطراً، فكوب الشاي والسيجارة والإكرامية مفاتيح مهمة تجعل الأفواه المغلقة تتكلم. لم تكن المشكلة في رغبة الناس في البوح بما لديهم بل كانت المشكلة أن ما لديهم بلا قيمة.

بدأ الجوع يستبد ببهي فغادر المبنى ليتناول غذاءه، وفقد حماسه للقصة كلها وقرر أن يفبرك خبراً هلامياً عنها. وركب سيارته وذاب وسط الزحام.

القاهرة

لفحة حنين

١

دقَّ جرس المنبه وفتح بهي عينيه بصعوبة، ومدَّ يـــده إلى المنبه ليغلقه، قبل أن يغفو مرة أخرى ويستيقظ فيجد الساعة تشير إلى الحادية عشرة. رفع الغطاء عن جسده فأنعش البرد حواســـه وجلس على طرف الفراش، أغمض عينيه ضاغطاً على جفونهما بقوة أملاً في مغالبة الصداع اليومي.

شخصية بهي الحقيقية تبدو أكثر في وضوحاً في شـــقته فهي ممتلئة بالأشياء الثمينة لكن دون معنى، فهو مغرم بالأشـــياء العابرة...الأصدقاء...الأفكار... النساء... حتى علاقته بالصحافة التي تبدو الشيء الوحيد الثابت ،هي الأخرى بدأت بصدفة ومـــا زالت علاقة هاو بهواية ممتعة.

مد بهي يده على الكمودور المجاور للفـــراش والـــتقط الريموت كونترول وفتح التلفزيون، عبث بالأزرار حـــتى لفتـــت

نظره فتاة جملية تقدم برنامجاً رياضيا نظر بتمعن إليها .. .. لم يكن ما لفت نظره إليها كيفية أداء التمارين الرياضية بل جسد من تؤديها .. تحالفت الكاميرا معه فاستعرضت جسدها ببطء مثير. أطلق صفارة إعجاب مردفاً:

"البرامج الرياضية تقدمت جداً!!".

اتجه نحو المطبخ متثاقلاً.. وقف أمام الحوض المعدني نصف الممتلئ بالأواني المستخدمة .. أمسك إناءً صغيراً... سكب ما فيه من بقايا قهوة اليوم السابق .. وضع الإناء تحت الصنبور وأضاف البن والسكر دون حاجة إلى تركيز، فقد اعتادت يده هذا الطقس اليومي... وضع الإناء على النار ووقف ينتظر غليانه، فالقهوة بالذات لا تحتمل أي سهو في إعدادها حتى يكون لها "**وش**" يكمل تأثيرها البيولوجي في الجسد بالتأثير النفسي لطعم هذا الوش وسمكه.

خلال هذه اللحظات قفز إلى ذهنه منظر فؤاد عبد القادر وهو يهرب منه على باب وكيل النيابة وداخله إحساس غير مفهوم بالانقباض:

"لا بأس .. كان يمكن أن نخرج من هذا الموضوع بخبطة صحفية .. خيرها في غيرها .. .. ولكن لماذا تلح على ذاكرتي ملامح هذا الرجل؟ شئٌ ما في ملامح فؤاد عبد القادر يذكرني بشهاب علم الدين .. ياه شهاب علم الدين .. نعم .. إنني لأول مرة منذ سنوات أرى شهاب في الحلم .. الحلم" . . ..

وحاول جاهدا أن يتذكر تفاصيل هذا الحلم دون جدوى.

فارت القهوة فأطفأت الشعلة وأشعلت غضب بهي:

"يووه"

قالها وصب القهوة بفتور وانهالت عليه الذكريات:

"شهاب علم الدين .. .. ما الذي يحدث .. حـــادث غريب .. حلم أكثر غرابة ؟".

كان فتوره لصب القهوة ساخنة في جوفه كما يفعل كل يوم باباً لدخول المزيد من الخواطر. ولأول مرة منـــذ أن حمـــل شهاب علم الدين هذا الشاب الأسمر ذو الملامح الحادة والنـــبرة الصادقة الثائرة حقيبته الصغيرة وغادر الشقة التي عاش فيها مـــع بهي سبعة أعوام لم يفترقا فيها كصديقين حمـــيمين، و لم يلتقيـــا كعقلين مختلفين تمام الاختلاف، حتى أن بهي كان يشبه علاقتهما بعلاقة الاتجاهات المختلفة في إشارة مرور واحدة تجاورها دائـــم واختلافها أيضا دائم.

عاد بالذاكرة أربعة أعوام للوراء وتذكر الضمة الأخيرة على باب الشقة وهو يودع شهاب بالدعاء، وتأمل حياته للمرة الأولى منذ سنوات .. عندما قرر أن يعيشها كما هـــي وكمـــا هو... علاقات عابرة... منبه يوقظ الجسد... قهوة تركية غليظة

القوام توقظ المخ .. ضوء صناعي للعمل ليلاً...ستائر كثيفة ليستطيع النوم نهاراً...

"ما بالنا نهرب من كل شيء طبيعي ونفرح بهذا الهرب فرحا أبله ؟".

مدَّ يده إلى فنجان من الخزف صب فيه القهوة وعلى وجهه علامات مزاج معتكر .. وضع القهوة على منضدة أنيقة عليها زخارف إسلامية محفورة حفراً غائراً. كانت القهوة بلونها البني القاتم تجعل الفنجان الأبيض يبدو كما لو كان حلقة بيضاء موضوعة على المنضدة، فاللون واحد تماماً كأن المنضدة غمست في فنجان قهوة ضخم.

ترك فنجان القهوة وخرج من المطبخ إلى الحمام . . وفعلت "**العكننة**" الأثر نفسه الذي تفعله القهوة، فهي أيضاً منبه قوي المفعول.

وقف أمام المرآة وركب شفرة في ماكينة الحلاقة ليحلق ذقنه، لأول مرة لا ينشغل بهي أمام المرآة بتهذيب شاربه وتفقد

بشرة وجهه بإمعان شديد كما كان يفعل كل يوم. استدار وأغلق باب الحمام وخلع ملابس النوم وفتح الدش، فاجأته برودة المـــاء فابتعد برد فعل آلي، فتح صنبور الماء الساخن ونزل المـــاء علـــى جسده حانياً... استسلم بسعادة غامرة وجرف الماء الـــدافئ في جريانه أحاسيس مختلطة بالتوتر والإجهاد والتشتت .. وصفا ذهن بهي تحت الماء فأغلق عينيه واستسلم لخدر لذيذ.

أغلق الدش وخرج من حوض الاســـتحمام ونظـــر في المرآة، وقال بصوت مسموع لصورته في المرآة:

"وما عيب الطقوس اليومية ؟ .. .. إن هـــذا الحمـــام أروع طقس يومي عرفه الإنسان"

قهقه بشكل شبه هستيري:

"يومك أسود يا أستاذ بهي .. .. طالما بدأته بالتأملات فلن يمر بخير .. ولو كنت في بيت أبي الآن لوبختني أمي لأنـــني أتكلم في الحمام".

سكت لبرهة ثم بدا كما لو كان قد انتبه لما هو أخطر:

"أتكلم في الحمام .. .. أليس الأخطر أنني أكلم نفسي، وهذه علامة من علامات الجنون الرسمي؟"

ودخل بهي في حوار مسموع مع نفسه:

"وما المشكلة؟.. الجنون قرين العبقرية"

"لا .. وهل تضمن يا سيد بهي أن يكون جنونك عبقرية .. .. الجنون الذي يحتفون به هو جنون أدباء الحداثة وما بعد الحداثة، أما جنونك فيمكن أن يكون (عباسية)".

التقط فنجان القهوة من المطبخ واتجه نحو حجرة النوم... رشف رشفة من الفنجان ووضعه على الكومود وعلى وجهه إحساس بالقرف:

"قهوة بدون وش عدمها أفضل".

نظر إلى المنبه الموضوع على الكومود ووجد الساعة تشير إلى الثانية عشرة إلا الربع، فارتدى في سرعة بهلوانية ملابسه التي

لا تختلف كثيراً عما في المكان... أشياء جميلة أنيقة لكنها كلها في غير مكانها، مترل مؤثث بذوق راق تنقصه اليد التي تضع الأشياء في مكانها.

هرول إلى المطبخ أغلق محبس الغاز... عاد مسرعاً والتقط أوراقاً متناثرة وعلبة السجائر ودسها جميعاً في الحقيبة دون تنظيم. أغلق الحقيبة وهو يتحرك نحو الباب، والتقط المفاتيح، وفتح لوحة الكهرباء وفصل الكهرباء عن الشقة فانطفأ التلفزيون. أغلق الباب ودس المفاتيح في جيبه واتجه نحو المصعد.

٢

استقر المصعد وخرج هي في نشاط متجهاً للخروج من العمارة ألقى تحية الصباح على البواب الذي سبقه إلى سيارته الصغيرة ليرفع عنها الغطاء... فتح باب السيارة ووضع حقيبته

على المقعد الخلفي وجلس خلف مقعد القيادة وأدار المحرك بينما البواب ينفض الغبار من على السيارة.

وفي انتظار أن يسخن المحرك أدار بهي مؤشر الراديو وراح يتجول بين المحطات، أصوات مختلطة بين برامج أطفال وبـــرامج نسوية وأغاني من كل لون ...لفت نظره صوت مذيعة تـــتكلم بدلال أنثوي ظاهر، ضبط المحطة كانت المذيعة تتحدث عن بعض الغرائب والطرائف.

انطفأت لمبة إنذار المحرك فبدأ يحرك السيارة ببطء لينبه البواب الذي ابتعد ملوحاً لبهي بالتحية من خلف الزجاج. خرج بالسيارة إلى الطريق ورفع صوت المذياع:

"ألقت الشرطة صباح أمس القبض على رجل أعمال تسبب في ذعر كبير بين المواطنين نتيجة خطأ طريف .. .. رجل الأعمال استورد لحماً بقرياً محفوظاً ونظم حملة دعاية ضـــخمة لترويج المنتج الجديد، وعندما نزل المنـــتج للســـوق فـــوجئ المستهلكون الذين تهافتوا على شرائه بوجود عبارة (لحم بشري

مجمد) على عبوات المنتج. رجل الأعمال المشهور اعتذر عـــن الخطأ المضحك، وينتظر قرار النيابة بحفـــظ التحقيـــق أي أن الموضوع أصبح كله (مجمد)".

وأطلقت المذيعة ضحكة خليعة فأطلق هي عبارة فالتة:

"يا بنت الكلب".

ومنحه الهدوء النسبي في الشوارع فرصة للانتقال بين محطات الإذاعة وتوزيع عبارات الاستحسان والاستهجان هنا وهناك.

من ميزات أن يعمل المرء صحفياً أن يـــترل في موعـــد متأخر نسبياً عن موعد نزول الموظفين إلى أعمالهم، فيكون مصعد العمارة خالياً وتكون الشوارع أقل ازدحاماً.

ففي مدينة كالقاهرة ينتقل الناس كل الناس في موعـــد واحد تقريباً، ويصبحون في شوارعها كما لو كانوا شعباً بأكمله يهرب من جيش معاد .. أرتال من السيارات تتدفق في كل اتجاه

وصيحات استنكار .. وأحياناً سباب مـــن نوافـــذ الســـيارات. وحافلات نقل عام مكتظة ببشر يطل خدر النوم مـــن عيـــوهم وتطفح ملامحهم بالبؤس .. يبدون في عبوسهم كأهم اســـتيقظوا فزعين إثر هزة أرضية أخرجت الجميع إلى الشارع. دورة جهنمية تآلف الناس مع عذاباها بصبر أسطوري عصيٍّ على التفسير.

طارده الخبر نفسه في محطة أخرى يذاع بصيغة ســـاخرة قريبة من السابقة فشعر بالتقزز الشديد وسرت في بدنه قشعريرة، وبدأ يجتاحه حدس بأن هذه القصة ستعترض طريقه مرة أخرى... وفي شروده لم ينتبه إلى سيارة مسرعة تعترض طريقـــه وتطلـــق عجلاها صوتاً حاداً يعيده إلى وعيه. تحمـّــــل ببرود عبـــارات قاسية من سائق السيارة الأخرى وبعض المارة وسار في طريقـــه وهو يتمتم:

"اليوم من أوله لا يبشر بأي خير .. .. ربنا يستر".

٣

عاد بهي من العمل مشتتاً فاندفع للحمام بحثاً عن الهدوء و السكينة في دفء المياه .. خرج من الحمام فاندس تحت الفراش مستكيناً، ومدَّ يده للريموت كنترول ليستدعي صديقه الوحيد... عبثت يده بالأزرار بحثاً عن شيء ممتع... و لم يجد أكثر إثارة من الإعلانات فهي في النهاية مشاهد متوالية لا يجمعها رابـــط، ولا تستحث العقل على التفكير في شيء وراءهـــا. حـــرك مؤشـــر الصوت ليخفضه وامتدت يده إلى الوجبة الجاهزة التي جلبها معه وبدأ يأكل.

والتفت إلى الهاتف بجواره وتذكر أنه في الصباح خـــرج دون أن يفتح "**الأنسر ماشين**" ليسمع الرسائل الصوتية.

كانت هناك رسالة صوتية واحدة تتكرر لأكثر من عشر مرات، تنهدات نسائية حارة وجملة واحدة:

"يا عم رق .. يا سيدي ميل .. يا حبيبي ما يصـــحش كده".

أطربته الرسالة وشعر بزهو الانتصار:

"هذه بعض خسائر التأملات .. كان يجب أن أتصـــل بها لأراها الليلة .. سامحك الله يا عم شهاب".

وقبل أن ييأس بهي من أن يستمع إلى رسالة أخـــرى في الشريط المملوء بالتنهدات جاءه صوت رئيس القسم ملهوفاً:

"ألو .. .. ألو .. بهي إذا كنت في المترل كلمني فورا .. سأنتظر منك اتصالاً بمجرد عودتك .. مؤنس .. سلام".

اعتدل بهي في جلسته وأعاد سماع الرسالة مرة أخـــرى كما لو كان غير مصدق، واكتست ملامحه بجدية شديدة:

"غريبة .. هذا لم يحدث منذ أن عملت في الجريدة .. ما بال المفاجآت تتوالى في هذا اليوم الغريب!".

رفع الغطاء عن جسده وفتح حقيبته الجلدية وأخرج منها فهرس أرقام التليفونات وعاد إلى السرير، لكن أقل اســترخاء. طلب رقم مؤنس ثم نظر في المنبه الموجود على الكومود أمامـــه فانتبه إلى أن الوقت تأخر، لكن صوت الأستاذ مؤنس رد بسرعة بما يعني أنه لم ينم:

"مساء الخير يا أستاذ مؤنس .. أنا آسف لأنني أطلبك في هذا الوقت لكنني لم أعد للمترل إلا الآن".

صدق حدس بهي وكانت هناك بالفعل مفاجأة:

"كنت في انتظار مكالمتك ولم أنم... مفاجأة يا بهي .. الجريدة تلقت قراراً من وزارة الإعلام بحظر النشر في قضـــية اللحم البشري المستورد".

وجاء رد بهي ملتعثماً:

"قضية إيه؟" . . . . أستاذ مؤنس .. أنا نفسي كنت في النيابة وكل الكلام كان عن خطأ غير مقصود .. أصبحت الآن قضية تجارة في لحوم بشر بالفعل؟. . . كيف؟"

وارتفع صوت بهي منفعلاً دون أن يقصد، وأوقفه مؤنس بلهجة صارمة:

"التليفون لا يصلح؟"

"لماذا؟"

"ليكن .. .. في الصباح بإذن الله أكون عندك .. لا .. لا التاسعة بإذن الله".

أغلق الهاتف وتيقظت حواسه كلها وهو يحاول بصوت مسموع ترتيب الحوادث على نحو يعين على فهمها:

"خطأ في كتابة البيانات على منتج أمر لا يتكرر كل يوم لكنه وارد .. لكن أن تتحول المزحة التي أوردها الجرائد

والإذاعات ضمن الطرائف إلى حقيقة، فهذا غير مفهوم .. وما كل هذا الاهتمام والحذر في حديث الأستاذ مؤنس؟"

صمت لبرهة وثبتت نظرة عينيه ثم قال:

"لحم بشري . . يا نهار أسود . . هذا يومك يا شهاب .. .. كنت تتحدث عن عالم يأكل بعضه لحم بعض على سبيل المبالغة وأصبحت المبالغة حقيقة .. لكن لا .. من المؤكد أن في الأمر خطأ ما".

اختلط الفضول الذي هو مرض مهني – فوق كونه طبيعة بشرية – بالصورة التي كان شهاب يرسمها للعالم وكان بهي دائماً يراها سوداوية متشائمة.

غادر بهي الفراش وهو يتمتم:

"يبدو أنه لا مفر" ..

اتجه إلى الدولاب وأخرج منه حقيبة قديمة تركها شهاب يوم غادر منزلهما المشترك لآخر مرة متجهاً إلى بيروت .. ..

أوراق كثيرة لم يفكر بهي أن يقرأها أبداً، كان يخاف أن تتبدل نظرته للعالم بفعل أفكار شهاب التي كانت .. أحياناً تبدو غريبة .. وأحياناً متشائمة .. وأحياناً حادة .. وغالباً ما تكون خليطاً من هذا كله.

فتح بهي الحقيبة فوجد مجموعة من الصور تجمعه مع بهي وأخرى تجمعهما مع زملاء آخرين. تستوقفه عيون شهاب ونظرتها الواثقة.

وبدأ يتصفح الأوراق، لا بحثاً عن شيء بعينه، بل بحثاً عن شيء لا يعرفه .. كان ممتلئاً بالثقة بأن الأفكار التي طالما جادل صديقه فيها تحمل إجابات عن أسئلة كثيرة فشل في وأدها، أو وأدها وخرجت من تحت الرماد شاخصة تستعصي على التجاهل:

"لو جعل كل منا جلده حدود عالمه لتحوَّل هذا العالم إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف .. أليس هذا كلامك يا شهاب".

وضع بهي الأوراق محاولاً وقف متوالية الانفعال والقلق التي استولت عليه بعد مكالمة مؤنس متسائلاً:

"حتى لو صح ما قاله الأستاذ مؤنس بحذافيره .. هذه في النهاية جريمة فردية... ولكن.. لو كانت جريمـــة فرديـــة، فلماذا كل هذا الحذر الذي أبداه إزاء الحديث في التليفون؟".

عاد بهي إلى جلسته المسترخية على الفراش وأخذ حقيبة الأوراق بجواره وبدأ يتصفحها ويصنفها .. لم يكن يتخيـــل أن يكون شهاب شغوفاً بالشعر كل هذا الشغف... ربما لأن الشعر كان في سنوات الدراسة هو فقط ما يمكن كتابته على بطاقة تهنئة أو في رسالة غرامية لفتاة. حتى الشعر عندك له مفهوم مختلـــف ومذاق مختلف .. ..

ودخل بهي لأول مرة عالم شهاب علم الدين بعـــد أن حاول شهاب نفسه لسنوات أن يأخذه معه فيه، دخلـــه زائـــراً مستكشفاً، فاكتشف أن الكثير مما كان يقولـــه شـــهاب عـــن المسئولية الإنسانية الأخلاقية إزاء العالم أمر بدهي، وأن الكثير من

الأفكار من كثرة ما تلوكها الألسنة في صياغات باهتـــة تفقـــد حرارتها.

لم ينتبه بهي إلى أن النهار قد أشرق منذ أكثر من ساعتين إلا عندما دق جرس الهاتف ورفع السماعة ليجد الأستاذ مؤنس على الطرف الآخر:

"صباح الخير يا أستاذ مؤنس".

ونظر في الساعة فوجدها تشير للثامنة صباحاً. أكمـــل المكالمة بردود مقتضبة ووضع السماعة. اتجـــه للنافـــذة وأزاح الستائر عنها، ولم يدهشه منظر الكون في هذه الساعة، رغم أنه لم يره منذ سنوات اختلف فيه إيقاعه عـــن الإيقـــاع الكـــوني الطبيعي، بقدر ما أدهشه أن يقضي كل هذه الساعات مستيقظاً دون الاستعانة بفناجين القهوة ذات القوام الغليظ.

انكسرت حلقة الطقوس الصارمة من حوله في لحظة .. وشعر أنه أخف وأكثر حرية... انطلق إلى الشارع حاملاً حقيبته بعد أن ارتدى ملابسه دون أن يشعر تقريباً، وترك سيارته حـــتى

لا يضطر لانتظار أن يسخن الموتور، وهرباً من أن يستجمع تركيزه المشتت ليقود السيارة في شوارع القاهرة في ساعة من أقصى ساعات الذروة.

اتجه البواب إلى السيارة ليرفع عنها الغطاء، لكن بهي لم يرد تحيته، بل لم يره... واتجه للشارع. أوقف سيارة تاكسي وركب دون أن يشرح للبواب معنى التغيير في الموعد والطقوس. وانطلقت السيارة تقطع الشوارع المزدحمة ، بينما بهي الأحمدي يتحول فضوله بالتدريج إلى قلق.

٤

انطلق بهي كالسهم داخلاً مبنى الجريدة دون أن يتوقف للتوقيع أو رد تحية موظف الاستقبال، كانت لهفته لمقابلة مؤنس لا تقل عن لهفة مؤنس:

"من المؤكد أنك دعوت عليَّ لأنني أيقظتك مبكراً على غير عادتك"

قالها مؤنس متلطفاً.

"أنا لم أنم يا أستاذ مؤنس .. وأرجوك أن تشرح لي ما حدث دون أي مقدمات أو إبطاء".

بدأ بهي حديثه من على باب الغرفة، وأطاح بحقيبته بعيداً بغير اكتراث، وجلس متحفزاً أمام مؤنس:

"أنا غادرت النيابة بالأمس وفؤاد عبد القادر ومحاميه عند وكيل النيابة .. ولما تأخر خروجهما ذهبت لتناول الغذاء ونسيت الموضوع كله وعدت للمترل في المساء .. . . فما الذي حدث منذ غادرت النيابة حتى الآن؟".

وبدأ مؤنس حديثه وبهي منتبه بكل حواسه:

"وكيل النيابة كان متجهاً لحبس فؤاد عبد القادر على ذمة القضية أولا لأنها قضية رأي عام . . . . المحامي أصر على

اعتبار الأمر مجرد خطأ في كتابة البيانات، وبالتالي حدث بحسن نية، لكن تقدير حسن النية في نظر وكيل النيابة كان متوقفاً على نتيجة تقرير المعمل، وطبعاً أي وكيل نيابة تكون أمامه قضية رأي عام يتصرف فيها بيد مرتعشة ويميل للتشدد".

اعتدل بهي في جلسته وقال :

"طبيعي .. حتى الآن لا مشكلة".

مد مؤنس يده لعلبة السجائر الموضوعة أمامه وأشعل سيجارة وأشار لبهي بواحدة فأخذها دون تعليق ومؤنس يستمر في السرد:

"محامي فؤاد عبد القادر طلب من وكيل النيابة الإفراج فرفض، وثار نقاش قانوني انتهى إلى ضرورة الحصول على تقرير المعمل أولاً... وبدأ فؤاد ومحاميه اتصالات على أعلى مستوى، لأنهما اعتبرا أن حبس فؤاد على ذمة القضية إساءة لشخصه ولشركته".

وأراد بهي أن يقاطعه فأشار إليه مؤنس بيده وأكمل:

"أرجوك .. اسمع أولاً .. في النهاية تم الاتفاق على إجراء تحليل أولي في اليوم نفسه على أن تستكمل التحليلات بعد صدور قرار الإفراج عنه، قَبِل الطرفان هذا الحل الوسط، وكانت كل الأطراف تعتبر نتيجة التحليلات تحصيل حاصل .. المفاجأة كانت أن نتيجة التحليلات المبدئية سلبية، وأكدت وجود بقايا لحم بشري في المنتج الذي يستورده فؤاد عبد القادر".

ولم يستطع بهي أن يكتم حيرته واستغرابه لما يسمع فقاطع مؤنس:

"ولكن فؤاد عبد القادر ومحاميه ليسا ساذجين ليطلبا هذه التحليلات إلا إذا كانا متأكدين من سلامة موقف فؤاد القانوني، كما أن فؤاد عبد القادر ذهب للنيابة بنفسه ولم يقبض عليه، كان أمامه فرصة كافية للهرب لو أراد".

تصرف مؤنس كما لو كان يتجاهل محاولة بهي لإخضاع ما حدث للتحليل المنطقي وألقى قنبلة أخرى:

"فؤاد عبد القادر أصبح خارج الموضوع تقريباً .. وربما بشكل نهائي".

وبدا الأمر أكثر استعصاء على الفهم بالنسبة لبهي فقال:

"هذا أغرب .. كيف وهو المستورد ؟ .. إنه المسئول الأول".

عاد مؤنس لسرد الأحداث في تتابعها المثير فقال:

"فؤاد عبد القادر أصيب بانفجار في شرايين المخ بمجرد علمه بنتيجة التحليل .. وهو الآن في المستشفى في غيبوبة تامة".

وألحت على بهي فكرة المؤامرة بشكلها الساذج وقال:

"وهكذا تدفن معه الحقيقة . . . ربما كان مجرد ضحية في لعبة أكبر منه؟".

"فؤاد عبد القادر لم يعد المشكلة .. والخيـــوط الـــتي ظهرت خلال ساعات عقَّـــــدت الموقف بدرجة لـــن تكـــن متوقعة".

وتساءل بهي:

"أية خيوط .. هل هي روايـــة بوليســـية يـــا أســـتاذ مؤنس؟".

واستطرد مؤنس:

"النتائج لخطورهّا الشديدة قبل إبلاغها للنيابة العامة تم إبلاغها لجهات عليا .. ويبدو أن هناك من تبرع بإبلاغ سفارة فرنسا التي دخلت الخط بسرعة طالبة وقـــف النشـــر عـــن الموضوع".

وألحت الأسئلة على بهي فقاطع مؤنس من جديد:

"فؤاد عبد القادر استورد المنتج من تايلند فما دخـــل فرنسا؟".

"هذا مربط الفرس"

قالها مؤنس وتنهد وبدأ يتكلم بلهجة أقل إثارة مشيراً بيديه على سطح المكتب كما لو كان يطالع خريطة مرسومة:

"المنتج المستورد تنتجه شركة فرنسية عابرة للقارات رأسمالها فرنسي، وإدارتها في بيروت، ومصانعها موزعة في عدة دول منها تايلند .. لكن العلامة التجارية فرنسية والشركة تعتبر تايلند مجرد مكان ملائم للتصنيع والتغليف بسبب الأيدي العاملة الرخيصة والتسهيلات القانونية".

وانتبه بهي متأخراً جداً إلى أن ما توفر لمؤنس من معلومات غزيرة عن موضوع كهذا محظور النشر فيه هو الآخر غريب، فقال:

"ومن أين لك كل هذه المعلومات الدقيقة في هذا الوقت المحدود؟"

ابتسم مؤنس وقال:

"سؤال مهم لكن الإجابة عنه تأتي بعد إطلاعك على بقية التفاصيل".

واستطرد مؤنس:

".. حظر النشر يعني حظره في مصر فقط، وهو سيدفع الناس للبحث عن الحقيقة في الشائعات .. الأرجح أن تنتهي الدعوة القانونية بموت فؤاد عبد القادر .. أو بالعفو عنه لأسباب صحية ليس هذا هو المهم".

وتساءل هي في هدوء أحدثته الصدمات المتوالية:

"فما المهم إذن؟"

واكتسى صوت مؤنس بنبرة حماسية واضحة وانتقل من على مكتبه ليجلس بجوار هي وقال:

"المجد المهني .. .. وهذا يتصل بسؤالك عن مصدر معلوماتي، فهناك جهات عديدة منافسة لهذه الشركة، ومنها شركة عابرة للقارات أمريكية الجنسية قررت تمويل إيفاد

صحفي لجمع معلومات عن الأمر، وسيكون الاتفاق من خلال وكالة أنباء عالمية تنشر سلسلة من التحقيقات المصورة عن حقيقة القصة المثيرة في صحف عديدة بلغات مختلفة .. أنا لا أستطيع السفر بنفسي لأنني مثقل بارتباطات عائلية ومهنية . . كما أن هذه المهمة تحتاج إلى شاب طموح مثلك... وقد رشحتك للسفر... على أن أقوم أنا بتوفير معلومات من مصادر أخرى وأتولى صياغة المادة وإعدادها للنشر .. و.. .."

ووصل العرض المغري للحظة الذروة:

"والمكافأة المقترحة عشرون ألف دولار غير مصاريف السفر والإقامة... والمكافأة ستكون مناصفة بيننا".

لم يفشل مؤنس في إثارة فضول بهي وحماسه، لكنه كان المستوى الشخصي على أعتاب تحول حقيقي جعله يفكر لأول مرة في حياته أن يتصرف انطلاقاً من استشعار مسئولية أخلاقية وإنسانية، صحيح أن العرض المغري الذي يقدمه مؤنس هو في النهاية جزء من آليات المنافسة الاقتصادية الشرسة التي لا قلب لها

ولا أخلاق، لكن بإمكانه أن يحقق أهدافاً يراها نبيلة ولا تتعارض مع أهداف ممولي المشروع.

أسباب كثيرة جعلته يعرف قيمة الصمت والتروي، بعد أن كان مثالاً للسرعة في الفعل ورد الفعل والانفعـــال، يـــتكلم بسرعة .. يحب بسرعة .. يشتهي بسرعة .. يمل بسرعة.

وطال صمته على غير المتوقع فباغته مؤنس بسؤال:

"هل أنت خائف يا هي؟"

وخرج رده واثقاً:

"إطلاقاً...لكن الأمر كله مفاجأة كبيرة، ومربكة.."

ركز هي نظره على النافذة المفتوحـــة خلـــف مـــؤنس للحظات كأنه يقرأ خلالها:

"أنا موافق .. .. ما المطلوب؟"

وابتسم مؤنس ابتسامة المنتصر وقال:

"أرسل إليَّ بالفاكس الصفحات الأولى من جواز السفر وسأتولى ترتيب كل شيء".

نهض بهي وحمل حقيبته وغادر الحجرة وهو يلتفـــت إلى مؤنس :

"خلال ساعة على الأكثر تكون عنـــدك... وطبعـــاً ستكون هناك جلسات قبل السفر للإعداد".

واختفى بهي سريعاً.

٥

أسبوع عصيب مر على بهي غيَّر فيه جلده تغييراً كاملاً .. كان لديه قناعة راسخة بأن خيط البداية هو في أوراق شهاب علم الدين، فصحافة الفهلوة التي مارسها لسنوات لم تمنحه الإثارة التي كان يحلم بها، وكان دائما يشعر أن ما بها إثارة "**مغشوشة**" تعتمد على سعة خيال الصحافي لا على قدرته على الوصول إلى

ما يدهش القاريء فعلاً، بل أحياناً كان يشعر أن المزيد من الإثارة يتطلب بالضرورة القليل من رقابة الضمير و.. .. "**أعذب الشعر أكذبه**" تلك كانت من العبارات النادرة التي تعلمها من شهاب وحفرت في ذاكرته، لأن تجربته الصحفية أثبتت علمته أنها قاعدة ذهبية في الممارسة الصحفية في مصر، ولولا يقينه بأن العرب الجاهليين لم يعرفوا الصحافة لظن أنها قاعدة مهنية حرفها الرواة.

غرق بهي الأحمدي في أوراق شهاب علم الدين فابتلعته وفتحت مسام عقله لشبق ضخم للمعرفة. كان السفر مغامرة مهنية للبحث عن المتاعب والمال والشهرة وأصبح لفحة نارية من الحنين أحرقت العاشق الذي دخل عالم العشق ببراءة ساذجة كبراءة الفراش.

اختار بهي في لحظة واحدة أن يحرق جسر التنهدات الذي التهم أكثر من عشرة أعوام من عمره وأن يعبر جسر القلق الذي فتح باباً للمجهول والخطر وربما الموت .. ..

أمده مؤنس بأوراق مترجمة ترجمة عجلى عن الشـــركة الفرنسية، وتنقَّـــل بين هذا الملف الصغير وبين أوراق شهاب، شيء ما بدأ يربط بينهما لا يدركه على وجه الدقة، وينتبه بهي في برقة حدس مفاجأة إلى وجود هذا الخيط الـــدقيق بـــين أوراق شهاب والملف الذي أعطاه إياه مؤنس.

وبدأ يبحث في أوراق الشركة الفرنسية التي استورد منها فؤاد عبد القادر صفقته المشئومة، اسم الشركة: **سامبل إتش كي** (SAMBL.HK.) أسسها عام ١٨٩٠ مجموعة من الشركاء بينهم الجنرال سانت أرنو أحد قادة الجيش الفرنسي المتقاعدين.

تولى رئاستها عام ١٩١١ ابنه بـــيير، وتحـــت رئاســـته توسعت أعمالها خارج فرنسا. ومنذ تولى رئاستها جورج بـــيير دي سانت أرنو عام ١٩٥٥ وهي تدار من بيروت حيث اختـــار جورج أن يعيش.

"ليس مجرد قائد عسكري متقاعـــد ضـــمن مجموعـــة مستثمرين إذن"

تمتم بهي الذي أصبح دون أن يشعر يرى العالم بعيون شهاب علم الدين:

"إنها ثكنة عسكرية فرنسية واصل قادة الاستعمار الفرنسي في الجزائر من خلالها حربهم لكن بطريقة أخرى وفضلوا التوقيع بالأحرف الأولى، فاسم الشركة مكون من الحروف الأولى من أسمائهم"،

ومرت أصابعه على الأسماء:

جي بليسيه

سانت أرنو

دي شانجارنييه

إم هيريسيون

جي مونتانياك

إي لاموريسيير

أر كافينياك.

شعر بهي أنه أمام جبل جليد عائم لم تكن تبدو منـــه إلا قمته الطافية على وجه الماء... جبل جليد ضخم يكتسح كل ما يواجهه بلا رحمة...

ألقى الأوراق وفتح حقيبة شـــهاب كـــالمجنون .. أزاح الصور وقصائد الشعر بعيدا، وبدأ يقلب في مسودة كتاب كـــان شهاب مشغولاً بإعداده قبل أن يتخذ قـــرار الســـفر لـــبيروت: **"فرنسا في الجزائر: رسائل الجنرالات والجنود"** ..

لم يكن في حاجة للبحث كثيراً فشهاب كان يعـــرفهم ويطاردهم ويجمع أدلة إدانتهم، حتى قبل أن يرتكب العم شـــفيق خطأه الذي نزعت صدفته القناع عن عـــالم بأكملـــه .. إنهـــم جنرالات الحرب الفرنسية السابقين في الجزائر.

تسمـــــّـــر بهي على السرير وجاءه صوت شهاب مختنقا بعبرة بكاء حار:

"كتب الكونت ديريسيون في خطاب إلى ذويه: لقد كان الزوج من آذان الوطنيين يساوي عشرة فرنكات .. لقد عدنا ومعنا برميل مليء بآذانهم التي قطعناها من الأسرى" .. ..

وكتب مونتانياك: "لقد قطعت رأسه ومعصمه الأيسر، ووصلت برأسه مثبتاً على رمحي ومعصمه عالق ببندقيتي، وقد أرسلته إلى الجنرال باراجوي الذي كان يعسكر بالقرب منَّا، وإنك لا تتخيل كيف كان ابتهاجه بذلك، وكنت أحياناً أفرج همومي بقطع الرؤوس لا رؤوس الصبار بل رؤوس الرجال".

وكتب الجنرال سانت أرنو في خطاب إلى زوجته: "إن بلاد بني منصر بديعة وهي من أجمل ما رأيت في أفريقيا فقراها متقاربة وأهلها متحابون، ولقد أحرقنا كل شئ ودمرنا كل شئ، .. الحرب! الحرب! أواه منها ما أكثر من هلك فيها من نساء وأطفال هاجروا إلى جبال الأطلسي فقضوا نحبهم فيها بين ثلوجها وبتأثير البرد والبؤس. .. .. إني أفكر فيكم جميعاً

وأكتب إليكِ يحيط بي أفق من النيران والدخان، لقد مررنا عند قبيلة اليراز فأحرقت أفرادها جميعاً ونشرت حولهم الخراب، وأنا الآن عند السنجاد أعيد فيهم الشئ نفسه ولكن على نطاق أوسع. لكأني في سرداب تكثر فيه الخيرات، وفي رسالة أخرى يقول: "ما أجمل أشجار البرتقال التي سأعمل الآن على اقتلاعها إني أنشر اليوم الحرائق في ممتلكات ابن سالم وقراه".

أصبح الفراش الوثير أقرب إلى قفنذ ضخم . . . تقلب بهي... وتزاحمت الأفكار والمشاعر واستسلم لعالم الدم الذي دخله على غير موعد، هو الذي فر من عالم البزنس مع أبيه بحثاً عن مهنة أكثر بريقاً وإنسانية قادته تداعيات هذا اليوم العجيب إلى عالم من الأساطير المرعبة يقود بعضها إلى بعض.

ورغم أن عالمه كصحفي هو ما يحدث الآن إلا أنه لم يستطع منع نفسه من الإمساك بالخيط الذي عثر عليه في أوراق شهاب، ومن الواضح الآن أنه خيط متصل يجمع سانت أرنو وحفيده جورج بيير دي سانت أرنو.

دق جرس الهاتف فتذكر بهي أنه ينتظر مكالمة مهمة من مؤنس .. تبدد إيقاعه القديم لم يعد سابحاً في فراغه المتخم بمشاغل وهمية وأشياء تافهة عارضة .. أصبح أكثر انشغالاً لكن أكثر سكينة ويقيناً. كان مؤنس يتصل به ليطمئنه على تأشيرة السفر لباريس... رفع بهي السماعة بلهفة وجاء صوت مؤنس خفيضاً محبطاً يخلو من الإحساس الغامر بالإثارة الذي طالما شاع فيه طوال الأسبوع الماضي:

"أهلا يا أستاذ مؤنس..هل هناك جديد؟"

صمت بهي وهو يسمع عبارة طويلة من مؤنس قبل أن يقاطعه قائلاً:

"أياً كان الأمر.. سأسافر على نفقتي.. لا داعي للاعتذار يا أستاذ مؤنس، أنا أقدر حساسية الموقف".

وضع بهي سماعة الهاتف وأغلق مصباح الغرفة .. واكتفى بمصباح جانبي صغير وأزاح الأوراق، وغطى جسده بغطاء خفيف ومد يده في حقيبة أوراق شهاب التي خرجت من الدولاب

لتصبح جزءاً من حياة بهي بشكل دائم .. وأخرج منها شـــريط كاسيت احتفظ به منذ أن غادر شهاب الشقة .. لم يفكر قبـــل هذه الليلة في الاستماع إليه .. كل ما يذكره أن هذا الشـــريط سجل عليه شهاب بعض أشعاره بصوته وتركه في الحقيبـــة. . . مجرد تذكار ..

كان في حاجة حقيقية لأن يستعيد صوت شهاب علـــم الدين حقيقياً طازجاً لا من خلف حُجُب التذكر. وضع الشريط في جهاز التسجيل وضغط على زر التشغيل .. .. أغمض عينيـــه وجاءه صوت شهاب واضحا صادقا:

بيروت سيدةٌ

تعطر مفردات قصيدتي

وتنام فوق دفاتر الذكرى

إذا ملت عيون الثاكلات من البكاء

.. ..

بيروت

يا أجمل الأحلام في صحو وفي نوم

ويا شرف القبيلة

يا جرحنا الدامي وطفلتنا الجميلة

أحرقت أطفال المخيم كلهم

من أجل من ؟

وسرقة خارطة البلاد

وشارة اللقيا

وأغنية الوطن

وتركتنا جزراً مشتتة

وأحرقت السفن.

بيروت

وتعطرت للموت..

١

لم يكن مطار بيروت مفتوحاً، فاضطر بهي الأحمدي للسفر جواً إلى دمشق، ليسافر منها إلى بيروت براً. وكان الإجراء الاحترازي الوحيد الذي استطاع اتخاذه أن يسافر صباحاً، بحيث يصل إلى دمشق بعد الظهر، ويستطيع السفر منها نهاراً.

ركب الطائرة حاملاً عدداً من مجلة لبنانية استلها من بين أوراق شهاب، آملاً أن يكون فيها أية معلومات مهما كانت سطحية عن هذا البلد الذي يزوره للمرة الأولى، وقد اجتهد خلال الساعات الأخيرة قبل السفر أن يستعين بما استطاع من نصائح الناصحين وخبرات المجربين، إلا أنه لم يظفر إلا بتحذيرات ومعلومات مبتورة يشفعها أصحابها بعبارة:

"هذا طبعا قبل الحرب الأهلية، أما الآن فلا أعرف ما الذي تغير".

استقر هي على مقعده وركز عينيه على المشهد خـــارج الطائرة وتلاشت التفاصيل من حوله .. .. كان الــتغير الأكثــر عمقاً في هي تحوُّله من الأشياء إلى الأفكار... عـــاد بالـــذاكرة سنوات للوراء عندما غادر شهاب علم الدين الشقة لآخر مـــرة، حاملاً حقيبته الصغيرة مسافراً إلى بيروت. اختار أن يـــذهب إلى الخطر بنفسه:

"فات أوان النقاش يا هي .. .. وسيأتي يوم تعرف فيه أنني كنت على صواب"

جملة ختم بها شهاب محاورات طويلة... كان واضـــحاً أمام إصراره أنها مناقشات لا طائل من ورائها .. ولكن العبـــارة تبدو الآن وهي ترن في أذني هي كما لو كانت تميمة خفية علقها شهاب على الباب و لم تخلع رداء تخفيها إلا الآن .. فهو يقرأهـــا ويسمعها، إنها تتحداه وتناديه في آن واحد.

"أي صواب؟"

قالها بضيق وهو يحتضن صديقه الأثير لمرة قـد تكـون الأخيرة وهمس شهاب في أذنه:

"أعرف يا بهي أن فيك نبلاً ونقاء سأفتقدهما كثيراً".

اهتزت الطائرة في صعودها فانتبه بهي وأدار وجهه عـن النافذة، وقال بصوت خفيض تعتصره المرارة:

"كيف يفقد العالم بهجته وجماله هكذا في لحظـة .. .. كيف يبدو وحشياً قاسياً هكذا بلا أقنعة؟"

اصطدمت عيناه بفتاة جميلة شقراء جلست بجواره دون أن يشعر وهو في شروده القصير... استيقظت حواسه فشم العطر الأنثوي المثير... وجال ببصره من خصرها الذي يحيط به حـزام الأمان إلى ساقيها البيضاوين المشـربين بلـون وردي شـفيف، واستدار كأن شيئا لم يكن.

كانت مثل هذه المصادفة في وقت آخر كفيلة بأن توقظ القناص القابع في أعماقه... لكنه فجأة فقد كل مواهبه في القنص

والصيد ونسي نصب الفخاخ .. وهكذا الإنسان إذا زهد فلم ير في فريسته إلا قطعة لحم:

"أه كم أصبحت هذه الكلمة مرة!"

كان مشهد الأنثى يبعث في نفسه بهجة ونشوة سحريتين... ولأول مرة يشعر أن النزال حُسم لصالح شهاب علم الدين .. حسمه وهو غائب عن ميدان العركة بالضربة القاضية. لكن المهزوم هذه المرة لم يشعر للهزيمة بمرارة، بل كانت ميلاداً جديداً .. ولكل ميلاد مخاض .. ولكل مخاض ألم.

٢

لمسته رفيقة الرحلة الشقراء برفق، والتفت إليها فوجد المضيفة تدفع أمامها عربة الطعام وتسأل بابتسامة اعتادت أن ترسمها لكل مسافر، فابتسامات المضيفات جزء من خدمة السفر، وهي الأخرى مدفوعة الثمن.

خيـــــرته المضيفة بين اللحم والدجاج فــامتعض لأن كلمة "**لحم**" أصبحت كالوخز المؤلم في جنبه:

"دجاج"

قالها ولم يزد، ومد يده ليفتح طاولة الطعــام المثبتــة في المقعد.

تناول الوجبة في فتور وازدردها كأنه يبتلع حجارة... لم يغره التغليف الأنيق، ولم يجبره جوعه الذي فرضه عليــه تعجــل الساعات الأخيرة قبل السفر على أن يأكل بشهية. كان يجتاحـــه إحساس بأنه يمر بتجربة روحية كتلك التي روى له شـــهاب أن الفيلسوف المسلم الكبير أبو حامد الغزالي مر بها قبل أن يـــدون كتابه الشهير "**المنقذ من الضلال**".

"لك الآن أن تهنأ يا شهاب .. فكل ما كنت أسخر منه في حواراتنا معا، وأنا سعيد بجهلي، هو الآن شوك في حلقي".

ومنحته النعومة الشديدة التي تتحرك بها الطائرة فرصة للتذكر:

"هل تعرف شاعرا اسمه صلاح الدين عبد الله؟"

"لا .. لم أقرأ في الشعر الجاهلي"

قهقه شهاب حتى استلقى على ظهره:

"كيف يكون جاهلياً واسمه صلاح الدين عبد الله؟!"

"أنت دائما تأتي بأسماء غريبة وأفكار أغرب كأننا نعيش في عالمين منفصلين"

"تقول هذا ونحن ننتمي لجيل واحد ونسكن شقة واحدة؟ .. بينما المسافات لم تعد تعني شيئاً... فالحضارات تداخلت والعصور أيضاً، وهذه الحقبة من التاريخ البشري أشبه بمتحف مفتوح للتاريخ الإنساني بعصوره المختلفة... فهناك حضارات وأفكار تعبر حاجز الزمان والمكان وأديان تتصارع وتتحاور و.."،

وقاطعه بهي باعتراض صاحب:

"ما كل هذا يا عم شهاب حضارات ومتاحف وسلاحف .. يا عم أنا آسف لك ولشاعرك العظيم .. يا نهار اسود .. قل لي من هو صلاح هذا وارحمني".

"صلاح الدين عبد الله شاعر مصري كفيف لم ير الدنيا بعينيه فأبدع في تخيلها، كتب رباعيات مبدعة بالعامية المصرية يقول في إحداها:

أنا عمري ما شربت الخمرة

هاتقوللي عفة؟

ها أقولك لأ

لكن أخاف اسكر مرة

أغلط وأنطق كلمة حق".

اختلطت الأزمنة والأشياء وصارت الأفكار خارج نطاق السيطرة فاستسلم بهي لحالته وتمتم:

"أكيد يا عم شفيق أنت أيضاً تخليت عن حذرك وشربت خمراً فأخطأت ونطقت كلمة حق .. .. لكن كلمتك لم تتسبب إلا في شقائي أنا".

لم يكن هي في حاجة إلى سماع تنبيهات طاقم الطائرة عن ربط الأحزمة وفكها، فمنذ أن ألقى جسده على المقعد وحزام الأمان مربوط، وليته وجد وسيلة ليربط عقله داخل حدود مشهد الطائرة زماناً ومكاناً... ليت حزام الأمان كان يستطيع.

عندما اقتربت الطائرة من الهبوط كان يشعر أن جسده مشلول وجرب بنفسه ما كان يسمعه من شهاب عن الزهاد الذين يعزفون عن الدنيا حتى يتخلصوا من عبء أجسادهم على عقولهم وأرواحهم ..

كانت الكلمات أكثر صدقاً وجدية مما يظن، فبسكون جسده صار عقله يغلي كالمرجل ويضطرب كالمصروع، وكم مرة تمنى أن تطاوعه دموعه في هذه الأيام العصيبة فيبكي وهو يسمع صوت شهاب:

"البكاء شيء نبيل يا هي"

"عرفت يا شهاب لكن متأخراً... عرفت أنني عشـــت أعواماً أفر من إنسانيتي .. وأنني أدمنت مخدرات رخيصـــة .. أتألم الآن ألماً بشعاً وأنا أحاول تخليص جسدي منها .. واضـــح أن النبل خمسة أحرف نستطيع أن ننطقهـــا بســـهولة أمـــا أن نمتلكها فـــ .."

انفتحت خزائن الحقائب و لم يعد الوقت مناسباً لا للتأمل ولا لتمني البكاء، فتح هي الحزام وسار في الممر الطويـــل بـــين المقاعد... أنهى إجراءاته تقريباً دون أن ينبس بكلمة... وخـــرج من صالة الوصول يبحث عن سيارة تاكسي.

اقتربت منه إحداها واسند يده على الباب المجاور للسائق، وسأله: "**بيروت**" رمقه السائق بنظرة متسائلة وتردد قبل أن يرد:

"مشوار **صعب يكلفك** ..."

وقاطعه هي وهو يفتح الباب الخلفي ويضع حقيبته:

"**المهم أن نصل قبل أن يحل الظلام**".

والتقت نظرهما في مرآة السيارة:

"**الطريق ليس طويلاً.. المشكلة في الحواجز الأمنية... وسأوصلك لأقرب مكان ممكن... وإذا كان هناك اشتباكات أو. . .** "

ورد بهي باقتضاب وهو يضغط على الحروف:

"**المهم أن نصل قبل أن يحل الظلام**".

وطبعاً لم تكن هناك فرصة لأن يبدي أي تأفف من حالة السيارة العتيقة، ولا لأن يقارنها بسيارته الجولف التي أهداها له أبوه في عيد ميلاده قبل الماضي.

استقر بهي في المقعد الخلفي وفتح حقيبة اليد التي يحملها وأخرج منها مجلة لبنانية ليتصفحها هرباً من طوفان الأفكار المتزاحمة، وبحثاً عن أية معلومة يمكن أن تفيده. وبين صفحات ممتدة من البكائيات المكتئبة على بيروت المحطمة توقّف أمام

شهادة عن مجزرة صابرا وشاتيلا... الشهادة كتبها دونالد فاجنر أمريكي عضو مجلس الكنائس الأمريكي وانفصل تدريجياً عن السائق والسيارة والطريق:

"دخلت المخيم... كان على يساري مبنى سكني من ثمانية طوابق يستخدم مركزاً إسرائيلياً للقيادة، ويمكن من خلاله مراقبة منطقة واسعة، وبالفعل كان هناك جنديان من جيش الدفاع الإسرائيلي يحملان نظارات معظمة ويراقبان المنطقة... في العشرين من سبتمبر، وبعد رحلة طويلة إلى بيروت الغربية أنا واثنين من أعضاء إحدى المنظمات المسيحية الأمريكية. وفي هذه الأثناء كنا قد سمعنا بالمذابح التي حدثت في مخيمات اللاجئين، وكنت أسير في طريق كورنيش المزرعة وكأنني أسير في شوراع درسدن بعد الحرب العالمية الثانية، فالمنتزه الممتلئ بأشجار الصنوبر كان يحمل آثار القصف المكثف حيث كانت الأشجار محطمة ومحترقة، وفي يوم الحادي والعشرين سمعنا ورأينا في المخيم ما يعجز لساننا عن وصفه!!!!"

وأحس هي الأحمدي أنه أصبح محاطاً بجبال من الأشلاء الآدمية تمتد من مكتب فؤاد عبد القادر إلى قلب بيروت ومن يدري إلى تمتد أبعد من ذلك، اختلس نظرة للطريق وعاد إلى التركيز في المجلة:

"كانت مجموعة من فتيان الكشافة اللبنانيين يحملـــون جثث القتلى على نقالات، وتولى أحـــد البلـــدوزرات إهالـــة التراب على بعض الجثث الأخرى فيما يشبه المقبرة الجماعية . . . وقبل أن نتقدم كثيراً داخل المخيم كانت رائحـــة الجثـــث المتعفنة تجبرنا على تغطية أنوفنا وأفواهنا بالمناديل".

وأحس هي كما لو كانت رائحة الجثث المتعفنة تهب من سطور المجلة وتزكم أنفه فرفع عينيه عن المجلة بحركـــة لا إراديـــة مقترباً بأنفه من النافذة كمن يبحث عن نسمة هواء نقي، وأخذ نفساً عميقاً.

بدأ السائق يبطئ السيارة ونظر إلى بهي طالباً منه إن كان معه شئ يريد إخفاءه أن يخبره ليتولى أمره لأنهما يقتربان من المنفذ الحدودي، وابتسم بهي ابتسامة مفعمة بالمرارة:

"**اطمئن ليس معي أي شيء من هذا النوع**".

"**ابق إذن صامتاً ودعني أتصرف**".

لم يكن المنفذ الحدودي مزدحماً، لكنه كان مخيفاً، فالكل متوتر وكم الجنود المسلحين أكبر بكثير مما توقَّـــع بهي.

مدَّ السائق يده في تابلوه السيارة وأخرج علبتي ســجائر مستوردتين وضعهما أمام الزجاج الأمامي للسيارة وطوى ورقتي عملة من فئة العشرة دولارات بعد أن أشار بهما بوضوح لبـــهي ليعلم أنهما سيضافان إلى الأجر الذي سيدفعه، لأنهما جواز المرور الحقيقي...

أوقف السيارة ونزل ملوحاً لأحد الضباط:

"**كيفك أبو نزار**"

واحتضنه ودس النقود في جيبه بشكل جعل بهي يشـــعر بالرعب، فلم يتخيل أبداً أن تكون الرشوة في مكان حساس كهذا نصف علنية كما يرى، وعلى الحدود بين دولتين أحداهما تحترق في آتون حرب أهلية...

تخيَّـــل للحظات أن يصبح في لحظة متهماً بجريمة رشوة في بلد غريب وفي هذا الظرف الحساس، وأعانه علـــى اســـتعادة توازنه سريعاً تذكـُّــــره كوب الشاي والسيجارة والبقشيش التي طالما فتحت أفواه موظفي النيابة المغلقة.

ابتعد الصوت وبهي يراقب حديثهما ثم صافح الســـائق ضابط المنفذ الحدودي، وعاد إلى السيارة وقادها ببطء ليقترب منه جندي الجوازات ودوى صوت السائق:

"توصيلة عائلية . . . ابن خالي"

ومد يده بعلبتي السجائر للجندي الذي ختم الجواز دون أن يقرأ بياناته بينما اثنان من الضباط يستلقيان في استراحة المنفذ

أمام التلفزيون ودخان الحشيش يتصاعد كثيفاً من النافذة متحدياً دهشة بهي الذي عاد لصفحات المجلة دون تعليق.

بينما كانت تتوارى شيئاً فشيئاً ملامح المنفذ الحدودي بألوانها القاتمة بينما السائق يستطرد في سرد قدراته الخارقة على اجتياز المنفذ دون أية إجراءات متحديا "**شطارة**" المصريين...

وبهي يعود بالتدريج لاسترخائه وعالم الأسئلة والذكريات والهواجس بعد أن راحت السكرة وجاء القصف والخطر والموت دون قناع.

بعد زمن لم ينشغل بهي بتحديده توقف السائق واستدار داعياً بهي للنزول فحمل حقيبته ودس في يد السائق أجراً جعله يقفز فرحاً، بينما بهي يتحرك مبتعداً عن السيارة كما لو كان يعرف وجهته والسائق يناديه بصوتٍ عالٍ:

"**لا تبتعد عن هنا يا أستاذ... من هذا الميدان يمكنك أم تجد سيارة توصلك**".

توقّف بهي بعد خطوات قليلة، ولم يطل انتظاره فعرف سائق تاكسي لبناني كهل بخبرته أنه ضيف لا يعرف بيروت .. ..

فتح بهي الباب ووضع حقيبته على المقعد الخلفي وجلس بجوارها، كان يخشى أن يضطره جلوسه في المقعد الأمامي بجوار السائق لمجاراته في حديث مستطرد حول أي شيء وكل شيء، فجلس في الكرسي الخلفي وسأله السائق بعد سيل من التحيات:

"فندق يا أستاذ؟"

"نعم"

ولم يزد.

٣

أطل هي من نافذة السيارة يتفحص بيروت بحثاً عن تلك المدينة التي عرفها من أفلام السينما المصرية فلم يجدها، التوتر يخيم على كل شيء... آثار القصف بكل الأحجام على المباني وفي الشوارع، وعلى ملامح الناس القليلين الذين رآهم في رحلة السيارة من المطار للفندق، إنهم يحاولون منذ سنوات أن يبعثوا مدينتهم لتخرج كالعنقاء من الرماد.

وفي مأساتها تبدو بيروت متحفاً لتاريخ الحرب في العالم كله .. والضحايا متنوعون .. بشر .. مدارس .. مستشفيات .. منازل .. المدينة الرياضية .. ..

وبعد المدينة الرياضية بقليل توقَّف السائق أمام فندق، لم يهتم هي بقراءة اسم الفندق ولا السؤال عن مستوى الخدمة... نزل غير مبالٍ بالسائق الذي نزل مسرعاً ليفتح باب السيارة ويحمل عنه الحقيبة، فتحرك هي متجاهلاً ودس في يد السائق عدة دولارات كانت كفيلة بأن يتهلل فرحاً. اتجه هي مباشرة لاستقبال الفندق وأشار لموظف الاستقبال:

"غرفة مفردة".

وضع جواز السفر أمامه، فأخرج الموظف استمارة وبدأ يملؤها من بيانات جواز السفر، بينما هي يطلق عينيه خارج الفندق ليتأمل مشهد أكياس الرمل التي تحيط بباب الفندق والمسلحين الواقفين أمامه بأرديتهم الداكنة... مشهد يذكر الناس الذين لم يكن لديهم سبب للنسيان بأن الحرب لم تنته.

لم تفلح المعاملة الودود من موظف الاستقبال والابتسامات الكثيرة التي بذلها لبهي في أن تنتزع من بين أسنانه كلمة واحدة. وسأله الموظف بأدب جم:

"كم يوما ستقيم يا سيدي؟"

"أسبوع"

قالها والتقط جواز السفر واتجه نحو المصعد الذي كان مكانه ظاهراً لا يحتاج إلى سؤال، أشار الموظف إلى أحد عمال

الفندق ليحمل حقيبة الضيف إلى غرفته، وجاءه صوت موظف الاستقبال كما لو كان يخرج من بئر سحيق:

"غرفة ٣٠٣ .. الدور الثالث".

لم يكن أمام بهي ليفلت من ضجيج الطواحين الدائرة في رأسه إلا أن ينام .. دخل غرفته فوضع الحقيبة على السرير واتجه مباشرة للحمام .. منحه الماء بعض السكينة .. لف جسده بالمنشفة وخرج من الحمام، فتح حقيبته فأخرج منها ملابس النوم فارتدى قطعة واحدة منها، وألقى جسده على السرير .. .. وراح في خدر عميق.

بيروت
المجهول

١

استيقظ بهي على رنين الهاتف في حجرته، وجاءه صوت موظف الاستقبال باللهجة اللبنانية المميزة، ورد بهي باختصار:

"في الغرفة .. شكراً".

رفع الغطاء عن جسده شبه العاري واتجه للحمام فصب الماء على جسده في سرعة، وخرج ليرتدي ملابسه ويتأمل الغرفة للمرة الأولى .. كانت بعد فتح الستائر مشرقة بشمس بيروت الحبية الدافئة بينما المشهد خارجها تعلوه كآبة لا تخطئها العين .. ..

الحرب أقل احتداماً لكنها دخانها خانق ورصاصها الطائش لا يتوقف إلا لينطلق مرة أخرى. صحيح أن الكثيرين كانوا يرون أن ما يحدث هو الفصل الأخير لكنه الفصل الأكثر

مأساوية. فبحثاً عن الحسم سالت دماء كثيرة وأصبحت المعارك مجازر إبادة شاملة أكثر من كونها صراعاً عسكرياً مـــن النـــوع المألوف.

"ترى أين أنت في هذا العالم المضطرب يا شهاب"

كان شيء ما يجعل بهي يفكر في شهاب دائماً، كما لو كان متأكدا من أنه ما زال حياً، الآن فقط وهو في قلب بيروت أصبح الأمر موضع شكٍ وتساؤل .. لكنه تساؤل حائر محير يحمله صاحبه ويكتوي بعذاباته ولا يعرف إلى من يتوجه به.

"نحن لا نختار آباءنا لكننا نختار أصدقاءنا"

تذكر كلمات شهاب وتمتم:

"نعم .. وأحياناً نختار أيضا نهاياتنا الفاجعة .. أو تختارنا وتصر علينا وتجبرنا على الاقتران بها".

دق الباب فاتجه إليه في خطوات ثابتة... فـــتح لعامــــل الفندق الذي قدم له طعام الإفطار ووضعه أمامه بنظام ووضـــع

الفاتورة. وقع هي الفاتورة وسلمها للعامل الـــذي انســـحب في هدوء.

استعاد هي شيئاً من توازنه، وبدأ يعود إلى طبيعته، أكل باعتدال بعد أن كاد أن يتحول فعلياً إلى مضرب عن الطعام تحت وطأة التحولات المفاجئة المتلاحقة التي داهمته طوال الأيام الماضية. تناول عدد اليوم السابق من جريدة "**الحياة**" التي لم تعـــد تصـــل بانتظام لمسقط رأسها بيروت منذ غادرتها إلى لندن بحثا عن الأمان .. وكثير من الفنادق اللبنانية أصبحت تعتبرهـــا طقســـاً يوميـــاً لروادها حتى لو لم تتوفر في موعد صدورها.

ما كان يشغل هي في المقام الأول الخطوة الأولى في هذه البلدة التي لا يعرف فيها أحداً .. ولم تكن غربته المشكلة الوحيدة بل كانت المشكلة الأكبر حالة بيروت المخيفة، فهي أشبه بغابـــة مظلمة كثيفة الشجر تتوزع الفخاخ القاتلة في أرجائها .. وهي لا ترحب بأحد ولا تغلق بابها في وجه أحد.

لكن هي ما إن دخل من باها حتى شعر أنه أمام عشرات الأبواب لا يعرف إلى أين يؤدي أي منها، وإن لم يفقـــد بعـــد حماسه ورغبته في خوض التجربة.

سلاح واحد كان يمنح شهاباً إحساساً بالأمان النسبي هو مبلغ كبير من المال منحه إياه أبوه على مضض لنفقات السفر، فرجل الأعمال الكبير لم يبتلع أبداً فكرة أن يضيع ابنه الأصغر زهرة عمره في الجري وراء حلم الصحافة، بينما يملك بالفعل أن يحقق كل ما يحلم به غيره من نجاح ومال إن التحق بإمبراطورية أبيه الضخمة.

كانت المرة الأولى منذ سنوات التي يحتضن فيها الأب ابنه ويغمره بحنان حقيقي منذ أن غادر منزل الأسرة جريا وراء "**المجد**" كما كان أبوه ينطقها دائماً ساخراً.

تمنى أبوه له التوفيق، وقال منبهاً ومنتبـــهاً إلى خطـــورة المغامرة:

"ليتني ما أرخيت لك الحبل من البداية في هذا الطيش .. .. سافر يا حمار".

وضحكا ضحكة من القلب منحت بهي إحساساً ظن لسنوات أنه في غنى عنه .. بل طالما فر منه معتبراً أنه حنان خانق.

٢

خرج بهي من المصعد متجهاً إلى استقبال الفندق وسلم مفتاح الغرفة واتجه للباب الخارجي الذي امتدت يد العامل الواقف أمامه لتفتحه بشكل آلي .. توقف على رصيف الفندق للحظات... وتحركت صوبه سيارة تاكسي ببطء، فتح الباب وركب وطلب من السائق التوجه للسفارة المصرية. السيارات المهشمة المتناثرة على جوانب الطرق كانت تشبه لوحات الفنانين السيرياليين في وحشيتها وعبثيتها، حاول السائق أن يتحدث مع

بهي الذي وجد نفسه – لأول مرة – منذ أن ألقي بـــه في هـــذا الكابوس مستعداً للكلام.

سأله عن بيروت ومعاناتها، وأجاب الرجل بصوت قلق وعيون زائغة، ومزج إجاباته بشيء من المزاح أطلق من صدر بهي ضحكة هي أقرب إلى نفثة مصدور.

توقفت السيارة أمام السفارة المصرية التي تركت عليهـــا أجواء الحرب مسحة من التوتر والتوجس .. دس في يد الســـائق عدة دولارات بشكل ينبئ بوضوح عن قلة خبرته بالمدينة.

استقبله موظف الاستقبال بفتور مصري صميم، فالمصري بالنسبة لموظف سفارته في الخارج هو غالباً عبء، وفي بـــيروت التي كان بها غير قليل من المصريين عندما بدأت الحرب كانـــت طلباتهم مرهقة، ولم تكن السفارة قادرة حتى على القيام بواجباتها الروتينية، فهناك سيل لا ينقطع من الطلبات طلبات للترحيل على نفقتها، ومساعدات مالية لا تملك السفارة توفيرهـــا، وطلبـــات شحن جثث موتى واستعلام عن مفقودين.

أعطاه الموظف نموذجاً جاهزاً فرضت ظروف الحـــرب، إعداده فهو ليس عرفاً في أية سفارة مصرية أخرى، وأصر الموظف أن يملأه بهي قبل أن يجيب عن أي تساؤل.

غاب الموظف لدقائق وعاد حاملاً كوباً خزفياً تتصـــاعد منه الأبخرة، وجلس خلف مكتبه بعد أن رمق النموذج الخالي من البيانات بنظرة غير ودود.

بادره بهي بلهجة آمـــرة مشـــفوعة بتقـــديم الكـــارت الشخصي:

"أريد مقابلة الملحق الإعلامي"

نظر الموظف في البطاقة ورفع سماعة الهاتف وطلب رقماً ثم تحدث مع الطرف الآخر مخبراً باسم بهي وصفته. أغلق الهاتف واصطحب بهي إلى ممر يقود إلى داخل المبنى وأصبحت معاملتـــه أكثر وداً. توقف أمام باب مغلق وطرق طرقتين وجاءه صوت من الداخل يأذن له في الدخول.

نهض رفيق صابر – هكذا تشير لوحة موضوعة على مكتبه – من خلف المكتب واستقبل بهي ودعاه للجلوس:

"مؤكد لم تشعرك المعاملة في الخارج بالراحة .. هذه أجواء عصيبة بدلت كل شيء"

كان توضيحاً لا اعتذاراً، لكنه منح بهي قدراً من التفاؤل بأن رفيق شخص يمكن التفاهم معه والاستعانة به. بعد التعارف بدأ رفيق يوجه الأسئلة المتوقعة لضيفه، وفكر بهي هل يكون المدخل الأنسب جورج بيير دي سانت أرنو أم شهاب علم الدين؟

أيبدأ بالبحث عن المجهول الذي صار معلوماً أم عن المعلوم الذي لا هو معلوم ولا مجهول، بل طيف مؤرق حضر قسرا واحتل المساحة الأكبر من حياة بهي؟.

حكى بهي القصة كلها لرفيق وطغت شخصية الدبلوماسي على مشاعر الإنسان .. فالابتسامات محسوبة .. والمفاجآت الصارخة في القصة هي مجرد كلمات، رشف رفيق

المشروب الدافئ وانتقل من الأريكة التي كان يجلـــس عليهـــا في مواجهة بهي، وجلس على مكتبه في إشارة واضحة إلى الحـــاجز الزجاجي الرسمي الذي يقف بينهما:

"اسمع يا أستاذ بهي .. .. الأمر فيه خيوط كثيرة يجب فصلها عن بعضها البعض .. التحقيق الرسمي في قضية اللحوم ليس لنا به صلة .. ولم يطلب منا رسمياً أي شيء بشأنه، وحتى يحدث هذا نحن بعيدون عنه تماماً .."

"أما موضوع صديقك شهاب علم الدين فقدرتنا على مساعدتك عليه محدودة"

قالها وهو يدون بيانات دخول شهاب إلى لبنان:

"وبخبرتي المحدودة في هذا البلد صديقك تطوع مع أحد أطراف الحرب .. وإذا توفرت معلومات أخرى فقد نســـتطيع الاهتداء إلى مصيره" .. ..

ورفع عينيه عن الأوراق وابتسم لبهي بود صادق:

"اطمئن هذه ليست مقدمة للاعتـــذار... أعـــدك أن أساعدك على قدر ما أستطيع".

وضع همي فنجان القهوة من يده وتأهـــب للانصـــراف وشجعه جو اللقاء على أن يسأل رفيق بشكل مباشر وهو يتأهب لمغادرة مكتبه:

"وبماذا تنصحني؟"

تحرك رفيق من وراء مكتبه وصافح همي بحرارة ونظر في عينيه بعمق، متخلياً عن عيون الدبلوماسي الزجاجية:

"قبل أن أعمل في الخارجية كنت صحفياً .. وأستطيع أن أعرف ما يشغلك الآن .. لكنني أنصحك بالحذر الشديد .. .. جورج بيير دي سانت أرنو ليس مجرد رجل أعمال .."

وبدأ رفيق يضغط على الحروف بشكل محسوب وموحي:

"إنه غول... غول يمكن أن يبتلعك بلا رحمة .. فهو تاجر أغذية .. وسلاح .. وسلام وثقافة وكل شيء، ولا تكاد توجد بندقية في لبنان إلا وضغطت يده على زنادها يوماً ما".

لم يكن بهي أكثر إحساساً بالرغبة من الإقـــدام علـــى خوض التجربة من هذه اللحظة، وكانت ملامحه تعكس ذلـــك بوضوح:

"نصيحة ثمينة جداً"

لم يجد غير هذه الكلمات القليلة المعبرة ليرد بهـــا علـــى كلمات رفيق التي قالها وهو واقف على باب الغرفة، وقبل أن يمد يده ليفتح باب الغرفة لخروج بهي قال له:

"هذه الحرب أكلت كثيرين .. وفضول الصحافة جنى على كثيرين أرجو ألا تكون منهم .. الوكالة الصحفية الـــتي كانت تمويل رحلتك وتراجعت مؤشر شديد الأهميـــة لدرجـــة

حساسية الموضوع... انتظر مني اتصالا خلال يـــومين... ولا تتخل عن ثلاثة أشياء في كل تنقلاتك:

جواز سفرك ..

وأموالك ..

والحذر".

٣

لم يكن الاهتداء لمكتب جورج بيير دي سانت أرنـــو في بيروت صعباً .. وقبل أن يبدأ بهي رحلة البحث كانت رســـالة قصيرة تنتظره عند عودته من السفارة في غرفته في الفندق تدعوه لمقابلة مدير العلاقات العامـــة بشـــركة **ســـامبل إتـــش كـــي (SAMBL.HK)**، وبلا غموض أو إثارة، الدعوة محـــددة للقاء مسئول العلاقات العامة في العاشرة من صباح اليوم التالي في

المبنى الإداري للشركة، و"**ستمر سيارة من الشركة في التاسعة والنصف صباحا لتوصيلكم لضمان سلامتكم الشخصية**".

فكر هي في المخاطر لوقت قصير، وبدت العبارة الأخيرة في الرسالة كما لو كانت تحمل تهديداً مبطناً – أو هكذا ظن لدقائق – لكنه كان يعرف عن نفسه جيداً أنه يفتقر للحس الأمني، وبالتالي لم يكن في حاجة لوقت طويل ليقرر قبول الدعوة.

كانت مفارقة مدهشة أن يشعر هي بقدر كبير من السكون النفسي في بيروت النائمة على القلق بينما لم يشعر بالقدر نفسه في القاهرة ... ربما لأن الأشياء الواضحة مريحة حتى لو كانت قاسية أو صاخبة.

أخلد هي للنوم وهو يمني نفسه بلقاء يشفي غليله ويجيب عن الكثير من الأسئلة التي تؤرقه، كان يشعر وهو في الليلة الثانية في هذا الفندق أنه مقيم منذ فترة طويلة، فأصبح أكثر استرخاء

رغم النصائح المتوالية من إدارة الفندق وسائقي التاكسي ورفيق بضرورة الحذر المميت.

تحركت السيارة ببهي من أمام الفندق ودخلت شارعاً شديد الأناقة، عرف فيما بعد أنه شارع الحمراء... أحد أفخم شوارع بيروت. ومرت السيارة من أمام ميرديان الحمراء الغاص بالنزلاء فكان شديد الأناقة لا يبالي بالحرب، على غير ما توقع.

توقفت السيارة وصحبه السائق إلى مبنى فخم تزينه لافتات **سامبل إتش كي (SAMBL.HK)** بأحجام مختلفة... المكان كله مصقولٌ بشكلٍ ملفتٍ، مرآة للذوق الفرنسي، والناس تتحرك في رشاقة آسرة.

قاده السائق إلى مكتب الاستقبال فاستمهله الموظف لدقائق... جلس على مقعد جلدي أسود فاحم مريح بجانبه منضدة صغيرة عليها منفضة سجائر وشعار معدني للشركة وكتيب تعريفي معد بعناية ..

كانت الدقائق التي قضاها كافية لأن يتأمل التناقض بين البريق الأخاذ للأشياء ومعانيها. وتذكّـــر ذلك الشيخ الجزائري الذي قيل له إن الفرنسيين جاءوا الجزائر لنشر الحضارة فقـــال في عفوية مذهلة: "**ولماذا أتوا بكل هذا البارود؟**".

بدأ بهي يرى الأشياء بعيني شهاب علم الدين، و لم تعـــد تبهره العبارات الجوفاء عن عاصمة النـــور .. وبـــرج إيفـــل .. وفلاسفة التنوير التي تستعين بهـــا هـــذه الشـــركة ذات الأذرع الأخطبوطية. تناول كتاب التعريف وقلّـــب صفحاته العربية، وتجولت عيناه بين السطور.

استوقفه أن للشركة جهوداً في دعم مؤسسات إغاثيـــة غربية وبرامج ذات شعارات إنسانية... و لم يكن بإمكانه فك كل الألغاز دفعة واحدة.

انتقل بهي إلى مكتب مدير العلاقات العامة، فرنسي من أصل عربي ناعم نعومة الأفاعي، يتزلق بشكل زئبقي فلا تكـــاد تمسك به .. تلك مهارته الوحيدة.

رحب ببهي ودخل إلى الموضوع مباشرة:

"في حدود علمي سبب زيارتك المباشر صفقة اللحوم التي أثارت ضجة في مصر قبل أسابيع... ونحن على يقين من أنك كصحافي نزيه يحترم الأعراف المهنية، لن تقبل أن تكون سلاحاً في يد شركة منافسة للتشهير بنا .. نقدر الصحافة إلى أبعد حد، ولذلك فضّلنا أن نتصل بك مباشرة لنضع كل الحقائق أمامك".

"يبدو أن التعاقدية الغربية الصارمة ستكون لها فائدة لأول مرة"

هكذا حاول بهي أن يفهم المدخل المباشر الذي اختاره رجل العلاقات العامة الفرنسي المتعرب.

"الذي حدث مسيو بهي خطأ إداري واجهناه بكل حسم، والذي حدث أن منظمات إغاثية عديدة دخلت مخيم صابرا وشاتيلا بعد الكارثة وكانت الحالة مأساوية"

.. .. تجمعت على وجه هي سحب قاتمة من الغضب الأسود ، فانتفض واقفاً وقاطع محدثه بغلظة قاسية:

"دخلتم ماذا؟"

"أستاذ هي"

قالها مهدئاً بنبرة تهديد مبطنة .. ..

"الحرب نحن لم نصنعها .. بل صنعها اللبنانيون، مدعومين بأطراف عربية وغير عربية"

وتحدث الرجل بتحدٍ:

"أرجو ألا تنسى أنه في حرب المخيمات كان هناك لبنانيون يحاصرون إخوانهم اللبنانيين وأن المحاصرين أكلوا لحوم الكلاب والقطط ،.. وفي آخر الشوط استصدروا فتوى دينية للموجودين تحت الحصار في حرب المخيمات تجيز لهم أكل لحوم البشر".

وبدأ هي يحدث نفسه:

"هذه المقدمة لا تبشر بخير أو كما يقولون عنــدنا في مصر (أول القصيدة كفر)"

عادت لهجة الفرنسي المتعرب إلى هدوئها، وبدأ يبني على المقدمة السابقة موجهاً كلامه لبهي بلهجة تقريرية لا تخلو مــن تودد:

"نحن شركة تجارية، وقد اكتوينا بالحرب ربما أكثر من غيرنا، دورنا في المخيمات كان إنسانياً محضاً لم تكن وراءه أيــة أبعاد سياسية أو تجارية".

"أكمل"

قالها بهي وهو يجلس متأهباً لسماع كارثة أبشع من كل ما سمع وكل ما تخيل.

"الحالة في المخيم كانت بالغة البشاعة والجثث كانــت أكواماً .. طلب منا، كشركة تعمل في مجال حفــظ اللحــوم ونقلها أن نقدم معاونة لم نتأخر فيها .. وخلال أيــام كانــت

الجثث تملأ ثلاجاتنا .. كانت هناك ضرورة بيئيـــة في المقـــام الأول"... ..

ابتلع بهي كلام محدثه، وإن لم يستطع أن يبلع ريقه، وملأ الغضب عينيه وقال:

"دون تبريرات . . . حتى الآن أنت لم تقل ما الخطــأ غير المقصود الذي حدث؟".

مد الرجل يده بعلبة شيكولاتة فاخرة لبهي ليأخذ منها قطعة فدفعها بهي بيده دون أن ينطق وعيناه تتقدان بالغضب.

واستطرد الرجل:

"بعض الجثث استخدمت في تجــارب تتصـــل بحفـــظ اللحوم دون علـــم إدارة الشـــركة... تجــاوز في اســـتخدام الصلاحيات من إحدى الإدارات الفرعية".

وبشكل لا شعوري تقلصت معدة بهي وانعكست حالته على ملامح وجهه الذي اكتسى بلون الدم واحتقن احتقاناً شديداً... وبدأ بهي يتقيأ بعنف.

توقف الرجل عن الكلام واستدعى الأمن من هاتفه الداخلي، فجاءوا لحمل بهي الذي أغمي عليه وراح في غيبوبة.

بقي في غرفة مجاورة حتى انتهت الإسعافات الأولية .. أفاق بهي وجاءه بعد قليل الفرنسي المتعرب يرمقه بنظرة هي خليط من الإشفاق والازدراء، وبادره قائلاً:

"نحن ندرك شعوركم الطاغي بالاختلاف عنا ...ولهذا فضلنا أن نصدر الجزء الأكبر من هذه اللحوم الناتجة عن مشروع تجريبي إلى الدول الأوروبية كمعلبات مخصصة لتغذية الحيوانات الأليفة... والجزء القليل الذي صدر إلى بلادكم جاء إليها عبر مافيا معروفة تشتري منتجات مماثلة من الأسواق الأوروبية بأسعار زهيدة وتعيد تغليفها وتصديرها".

استدار الفرنسي المتعرب وأطلق عينيه خـــارج النافـــذة مستطرداً:

".. وفي النهاية، هذا الخطأ الذي أثارك لدرجة القيء يا مسيو ثمن طبيعي للتقدم... فلا تقـــدُّم دون ثمـــن وتضـــحية وقسوة... طبيعتكم العاطفية من أهم أسباب رؤيتكم الســـلبية لنا... نحن نجرب فنصيب ونخطئ... وبالتالي نتقدم".

ثم حدق في عينيه متحدياً:

".. أما أنتم فالزمن يتجاوزكم وأنتم مقيدون بقيـــود العاطفة والقداسة... إنني أحدثك باعتبارك مثقفاً سيعي معنى ما أقول" ..

وصمت هي للحظات .. ..

ثم بصق في وجهه !!

بيروت

باريس

١

اكتشف هي بعد أن صحا من نومه في اليوم التالي أنه لم يكن في كابوس، وهو ما ضاعف صدمته ... جاء من مصر بحثاً عن إثارة وأسرار عصية يطاردها وتراوغه، فإذا هو أمام منظومة متكاملة من العري الوقح، أشياء عارية بلا أقنعـــة ولا حجـــب وعريها الرخيص يفقدها كل معنى.

بهذه البساطة يتحدثون عن الإنسان وينزعون القداسة عن حياته وموته، ويتجرءون عليه ويقدمون لحمه للكلاب والقطـــط معلباً. حالة من التبلد لم يجد مفراً منها، ربما هي التي أنقذت هي من أن يصاب بانهيار عصبيٍّ حادٍ.

وجاء اتصال تليفوني من السفارة المصرية كان فيه صوت رفيق مكسواً بوقار حزين:

"وهل هناك أسوأ مما سمعت؟!"

كان سؤالاً منطقياً سأله بهي لنفسه وهو يتلقى دعوة رفيق لزيارة السفارة في أقرب وقت. كانت نهاية زيارته للشركة الفرنسية تشعره أن نهاية الرحلة أسرع مما كان يتصور بكثير... ارتدى ملابسه وصار العبوس ملمحاً ثابتاً لوجهه الذي أضافت له الصدمات تجاعيد كان يحتاج رسمها لسنوات.

لم ينسه عامل الاستقبال بعد الزيارة الأولى فقاده مباشرة لمكتب الأستاذ رفيق... اكتسى وجه رفيق هذه المرة بمسحة إشفاق.

وجلس بهي وهو لا يرى شيئاً في العالم يمكن أن يكون أسوأ مما سمع. سأله رفيق عن أخبار مهمته وأدهشه أن يعلم بأمر زيارته للشركة، وترك رفيق التحفظ الرسمي، وقال لبهي:

"زيارتك لنا أنقذتك من الموت المحقق... لأنهم فضلوا أن يتفاهموا معك مباشرة على أمل أن تغلق الملف طواعية وتعود... وبمجرد أن زرت السفارة أصبح التخلص منك في الظلام وادعاء الجهل بوجودك ابتداء أمراً عسيراً".

بدأ شيء من الهدوء يعود لبهي وأحس أن شجاعته كانت في محلها، وتساءل:

"والآن؟"

رد رفيق مؤكداً ما سبق أن قاله في الزيارة السابقة:

"السفارة ليست طرفاً في الأمر على الإطلاق ... أنت هنا مواطن مصري أسدي لك النصح بصفة شخصية ومن منطلق إنساني، وما سأقوله لك عرفته بالأمس فقط ومن صديق لبناني نافذ أطلعني بصفة شخصية على بعض الخلفيات الحقيقية للقصة... لكن في البداية، قل بالضبط: ماذا حدث في زيارتك لمكتب أرنو؟".

قصَّ بهي القصة على رفيق وشعر للمرة الأولى أنه يتخلى عن السمت الرسمي الذي وسم لقاءهما الأول، فتخلى هو الآخر عن شيء من البروتوكول وطلب منه أن يقدم له كوب شاي...

انطلق رفيق يفض بعضاً من الغلالات التي تحجب الحقيقة عن عيني بهي:

"لم يكن الأمر خطأ كما قال لك الفرنسي الذي قابلته .. بل تجارة منظمة بدأت بالصدفة... فمع استمرار سقوط الضحايا في الحرب الأهلية، فكَّر شخص ما في الحصول على أعضاء بشرية منهم للمتاجرة بها في تجارة الأعضاء الرائجة، واقتضى هذا تنظيم العمل".

بدا بهي وهو يسمع كما لو كان شخصاً آخر، أصبح كالجراح الذي اعتاد رؤية الدماء وإعمال المبضع في الأجساد، كانت ملامحه تتأثر بشكل محسوب لا تشنج فيه. وأكمل رفيق:

"منظمة إغاثية توفر الواجهة... وميليشيات توفر الوصول للجثث في الوقت المناسب... وشبكة علاقات دولية تضمن الاستفادة على أكمل وجه... مجرد تجارة في تقديرهم... لا مؤامرة ولا صراع سياسي".

وأحس بهي بمزيد من الوضوح منحه إحساساً بأنه وضع يده على الجانب الأكبر من الحقيقة.

"وعلى فكرة يا أستاذ بهي . . التحقيق في مصر لا يعنيهم كثيراً، لأن الشركة التي صدروا لها في حدود معلوماتي كانت هي الأخرى ضحية .. لكن ما يهمهم هنا... أن بعض الكبار متورطون وفتح الملف سيزيد الأمور تعقيداً... ولهذا السبب".

وصمت رفيق وبدا متردداً فشجعه بهي:

"تكلم دون أدنى حرج يا أستاذ رفيق، وتأكد أنني مقدر شجاعتك... وممتن أشد الامتنان لما قدمته لي رغم قيود عملك الرسمي".

كان رفيق يفرغ آخر ما في جعبته:

"أنصحك بمغادرة لبنان فوراً..."

وقبل أن يصدر عن بهي رد أو استفسار قال رفيق:

"لو أنهم لو علموا بصلتك بشهاب علم الدين لقتلوك فوراً".

عاد بهي إلى توتره فانتفض واقفاً بشكل لا شعوري ووقفت الكلمات في حلقه... ضغط على الكلمات بصعوبة حتى لا تخرج صارخة صاخبة:

"شهاب علم الدين؟! لقد كدت أنسى موضوع شهاب... ولكن .. لو علموا بصلتي بشهاب علم الدين لقتلوني. . . لماذا؟"

وجاء رد رفيق حازماً:

"نعم شهاب علم الدين دفع حياته ثمناً لمحاولة فضح هذه التجارة القذرة... وقد تخلصوا من جثته بالطريقة نفسها، ولو علموا لقتلوك كما قتلوه".

وكأنها كانت قنبلة فجرها رفيق في وجه بهي فشطره نصفين .. كل صدمة كان يمكن احتمالها إلا أن يكون هذا مصير شهاب علم الدين...

صرخ بهي كالمجنون وأمسك بملابس رفيق وهو يهزه بعنف ويصرخ:

"لا .. .. لا .. لا .. شهاب .. لا .."

وتمزقت ملابس رفيق بين يديه، وامتدت ثورته ليحطم كل ما يمكن تحطيمه من أثاث في المكتب.

٢

في غرفة بمصحة نفسية بضاحية المعادي الهادئة بالقاهرة انتهت الرحلة سريعاً... ولم يكن لديه بعد رحلته هذه أي فضول لأن يعرف كيف نقل إلى هذا المكان بل ربما كره الفضول كله... وتمنى لو لم يدخل هذا العالم ولم يحلم بأن يتوج في بلاط صاحبة الجلالة، لكنه أبداً لم يتمن أن يشطب من حياته صفحة شهاب علم الدين بكل مراراتها.

تحمَّل بهي حتى خارت قواه وأصيب بانهيار عصبيٍّ حادٍ.

لم يكن هشاً أو قليل الاحتمال، بل كان ما واجهه فوق طاقة البشر... سقطت الأقنعة عن عالمه كله في تجربة تركت فيه أثراً يشبه أثر نصل حاد تمسك به يد مقاتل بدائي قوية.

جاءه زوار كثيرون، لكنه كان شاعراً بسعادة خاصة لزيارة أبيه، والأغرب أن الأب كان لديه إحساس غامض بأن هي تغير فيه شيءٌ ما... إلى الأحسن... الحوارات بينهما كانت مقطوعة دائماً والمسافة كانت تتسع بمرور الزمن.

في كل مرة كانت الزيارة تختتم بمونولوج لا يتغير:

"هل ينقصك شيء؟"

"ينقصني أن أراك في أقرب وقت"

ثم يتبادلان تحيات تقليدية.

لكن هي ما إن استعاد شيئاً من حيويته وبدأ يتماثل للشفاء حتى تغيرت إجابته على سؤال أبيه وجاءت مشفقةعو هذه المرة بطلب، ولأسباب عديدة كان عبد الهادي الأحمدي مدفوعاً لإجابة طلب ابنه.

نظر هي إلى أبيه بعينين غائمتين بدموع تمناها طويلاً وتأبت عليه:

"شهاب كان يدافع عنا جميعاً يا أبي... فتخلينا عنه حياً وأكلناه ميتاً".

انهمرت الدموع منهما ساخنة صادقة هادرة وارتفع النشيج، وأكمل بهي محدثاً والده بالنبرة الباكية نفسها:

"ساعدني يا أبي أن أجمع ما يمكن أن يكون رفات صديق عمري وأدفنها".

٣

لم يكن عبد الهادي الأحمدي يتخيل أن تنتهي مساعيه لشد ابنه إلى عالمه عالم المال والسطوة إلى أن يدخل هو نفسه عالم بهي في تجربة غريبة كهذه، وأن يجد نفسه في قلب هذا الإعصار، لكنه في النهاية يتصرف في المقام الأول كأب .. ..

وقد منحته دائماً علاقاته المتشعبة بالمسئولين... كل المسئولين... كما هو عالم البزنس في أي بلد متخلف قدرة على الحصول على ما يريد، كل ما يريد. لكن ما كان يريده المرة كان يلفه الغموض ويتصف بالغرابة الشديدة.

ما استطاع أن يعرفه في النهاية بعد أيام من الاتصالات والاستفسارات أن ما يطلبه ليس مستحيلاً لكنه مشروط.

والشرط الأهم ألا تتحول الجنازة إلى قضية رأي عام بأي صورة حتى لا يعاد فتح الملف... أما المشايخ الذين رجع إليهم فرغم كثرتهم لم يتفق منهم اثنان على رأي فمنهم من أجاز دون شروط ومنهم أجاز بشروط ومنهم من حرم...

كان اسم عبد الهادي الأحمدي كفيلاً بإقناع المسؤلين بتسليمه البضائع المصادرة التي لم يتم التصرف فيها بإعدامها كما هو مألوف، فبسبب حساسية الموقف وغرابة الجريمة بقيت اللحوم التي فجرت هذه القنابل المتوالية في وجه هي تحت التحفظ وظل وضعها معلقاً...

وبدا طلب عبد الهادي الأحمدي في نظر بعض المسؤلين حلا لمشكلة ظلت لفترة دون حل.

كانت جنازة هزيلة غريبة... حُملت العلب التي اختلطت فيها لحوم جثث آدمية مجهولة بلحوم بقر في مجموعة من النعوش كأنهم ضحايا مذبحة، وهم بالفعل كذلك. وانطلق المشيعون القليلون الذين كانت قلتهم نتيجة تعهد عبد الهادي بأن يتم الأمر دون ضجيج وفي أضيق نطاق.

وبين المشيعين، سار بهي الأحمدي متثاقلاً يغالب رغبة عارمة في البكاء والتقيؤ ويبدو كمن يحمل العالم على كتفيه...

سار بهي لا يكاد يشعر بأحد ويستند لأول مرة منذ سنوات على ذراع أبيه... أفكار ومشاعر كثيرة متضاربة تتنازعه، ومشاهد كثيرة تتوالى أمام عينيه ويلح عليه سؤال واحد:

"ترى .. .. إلى أي علبة من هذه أشعر بالحنين إذا تذكرت شهاب علم الدين؟"

.. .. تمت

تنويه لازم

أولاً: الجنرالات الفرنسيون الـــواردة أسمـــاؤهم في الرواية شخصيات حقيقية، ورسائلهم الواردة بهـــا نصـــوص حقيقية منقولة من مصادرها التاريخية.

ثانياً: الشاعر صلاح عبـــد الله شـــخص حقيقـــي والأبيات المنسوبة إليه في الرواية هي من ديوانـــه المخطـــوط "**رباعيات**".

ثالثاً: قصيدة "**بيروت**" من أعمال كاتـــب الروايـــة ومنشورة في أحد دووابنه.

ممدوح الشيخ

سيرة ذاتية .... ممدوح الشيخ

** كاتب مقال بجريدة المستقبل (اللبنانية)، جريدة عمان (العمانية)، جريدة الحياة (اللندنية)، مجلة المجلة (اللندنية).

** أعدَّ وقدَّم برنامج "ساعة من القاهرة" – قناة الاتجاه (العراق) – مباشر – (٢٠١١ – ٢٠١٣).

** ** أعدَّ وقدَّم برنامج "إسلاميون" – قناة فلسطين اليوم (لبنان) – مسجل – (٢٠١٣ – ٢٠١٥).

أولاً: ترجمات في معاجم وموسوعات

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين". (مؤسسة البابطين – الكويت).

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم أدباء مصر" (الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر).

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "الموسوعة الكبرى للشعراء العرب المعاصرين: ١٩٥٦ – ٢٠٠٦" – إعداد وتقديم: فاطمة بوهراكة – المغرب –٢٠٠٩– برعاية الشيخة أسماء بنت صقر القاسمي.

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم الأدباء: من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢" – كامل سليمان الجبوري – دار الكتب العلمية – بيروت –الطبعة الأولى –٢٠٠٢–١٤٢٤ هجرية.

دراسات في الظاهرة الدينية

**المسلمون ومؤامرات الإبادة– مكتبة مدبولي الصغير – مصر – ١٩٩٤.

** الإسلاميون والعلمانيون من الحوار إلى الحرب

الطبعة الأولى – دار البيارق – الأردن – ١٩٩٩.

الطبعة الثانية – مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع – الأردن.

** البابا شنودة والقدس: الحقيقي والمعلن خلود للنشر – مصر – ٢٠٠٠.

** الشعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟

** الجماعات الإسلامية المصرية المتشددة في آتون ١١ سبتمبر: مفارقات النشأة ومجازفات التحول – مكتبة مدبولي – مصر – ٢٠٠٥.

** الإسلام في مرمى نيران العلمانية الفرنسية: ما وراء الحرب الأوروبية على الحجاب والنقاب– مكتبة بيروت – مصر/ سلطنة عمان –٢٠١٠.

** طارق البشري: القاضي.. المؤرخ.. المفكر.. وداعية الإصلاح – سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – لبنان – الطبعة الأولى ٢٠١١.

** عبد الوهاب المسيري: من المادية إلى الإنسانية الإسلامية– سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي – رقم ٧ – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – لبنان– الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

** مراجعات الإسلاميين (الجزء الأول) – تأليف بالاشتراك – مركز المسبار للدراسات والبحوث – الإمارات – سلسلة كتاب المسبار الشهري – العدد السادس والثلاثون – ديسمبر ٢٠٠٩.

** السلفيون من الظل إلى قلب المشهد– دار أخبار اليوم – مصر –٢٠١٢.

مؤلفات إبداعية منشورة

** نقوش على قبور الشهداء (ديوان شعر).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – الطبعة الأولى ١٩٩٦.

** عاصمة للبيع (مسرحية).

دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة – دولة الإمارات – ٢٠٠٠.

** الحلم المسروق (ديوان شعر بالعامية).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – ٢٠٠٣.

** **الندى والموت (ديوان شعر).**

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – ٢٠٠٣.

** **القاهرة.. بيروت.. باريس (رواية)**

الدار العربية للعلوم – بيروت – ٢٠٠٦.

** **أهي القدس؟** - ديوان شعر – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – ٢٠٠٩.

** **الممر** –رواية – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – ٢٠٠٩.

مؤلفات أخرى منشورة

** **أشهر الأحلام في التاريخ** مكتبة ابن سينا – مصر – ١٩٩٣.

** **التنبؤات والأحلام من الخرافة إلى العلم** دار التضامن – لبنان – ١٩٩٦.

** **ثقافة قبول الآخر– مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر –٢٠٠٧.**

** **مدخل إلى عالم الظواهر الخارقة– مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر –٢٠٠٧.**

** التجسس التكنولوجي: سرقة الأسرار الاقتصادية والتقنية (دراسة في المجتمع ما بعد الصناعي)- مكتبة بيروت - سلطنة عمان - شركة دلتا - مصر -٢٠٠٧.

** ثقافة السلام- دار ومكتبة الغد - مصر -٢٠٠٩.

تأليف بالاشتراك

** إيران - مصر: مقاربات مستقبلية - (تأليف بالاشتراك) - تحرير: توفيق شومان - مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي - بيروت - سلسلة الدراسات الإيرانية/ العربية - رقم ١- الطبعة الأولى -٢٠٠٩.

** يوميات الثورة المصرية - (تأليف بالاشتراك) - مركز الجزيرة للدراسات - قطر -٢٠١١.

** الحركات الإسلامية في الوطن العربي - (تأليف بالاشتراك) - إشراف: الدكتور عبد الغني عماد - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ٢٠١٣.

** السعوديون الشيعة: الفكرة والإشكاليات - مركز صناعة الفكر - السعودية - ٢٠١٥.

** المجتمع المدني السعودي: الملامح والأدوار - مركز صناعة الفكر - السعودية - ٢٠١٦.

أعمال حققها

** ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي (الشوقيات) – تحقيق – مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر –٢٠٠٧.

** ديوان الشاعر حافظ إبراهيم – (تحقيق) – مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر – ٢٠٠٩.

أعمال أعدها للنشر أو حررها

اكتشف وأعاد نشر رواية: "اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن" للمغامر المصري حافظ نجيب، وهي الرواية التي اقتبس عنها المسلسل التلفزيوني المصري الشهير "فارس بلا جواد". وقد قدم لها وألحق بها دراسة عن حياة مؤلفها.

** اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن (إعداد للنشر).

الطبعة الأولى – ١٩٩٦ – دار الحسام – لبنان – مصر.

الطبعة الثانية – دار الانتشار العربي – بيروت – ٢٠٠٣.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" – ٨ مجلدات – لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري – دار الشروق – مصر – ١٩٩٨.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" – لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب

المسيري – نسخة ميسرة ومختصرة (مجلدان) – دار الشروق بمصر بالاشتراك مع مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات – ٢٠٠٤.

** القمة الأمريكية السعودية الأولى: القمة السرية بين الملك عبد العزيز ابن سعود والرئيس روزفلت (البحيرات المرة –١٩٤٥) – (تقديم وتحرير ودراسة) – بقلم: الكولونيل: وليم إيدي (أول وزير أمريكي مفوض بالسعودية) – ترجمة: حسن الجزار – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر –٢٠٠٨.

** دع القلق وابدأ الحياة – تأليف: ديل كارنيجي – إعداد وتقديم ودراسة – دار الحرم للتراث – مصر –٢٠٠٩.

** كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس – تأليف: ديل كارنيجي – إعداد وتقديم ودراسة – دار الحرم للتراث – مصر – ٢٠٠٩.

** تربية المرأة والحجاب (ردا على قاسم أمين) – تأليف: محمد طلعت حرب (باشا) – إعداد وتقديم ودراسة – دار الغد للنشر – مصر –٢٠٠٩.

** الليبرالية في السعودية: الفكرة.. الممارسة.. الرؤى المستقبلية – مركز صناعة الفكر – السعودية – ٢٠١٣.

أفلام تسجيلية:

* دولة المنظمة السرية – الفكرة والإعداد والمادة العلمية – إنتاج قناة الجزيرة – قطر –٢٠٠٩.

جـــوائز

** جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية" – مصر – المسابقة الثقافية للشباب لعام ١٩٩١ – المركز الثالث في مجال الشعر.

** جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية" – مصر – المسابقة الثقافية للشباب لعام ١٩٩٢– المركز الثاني في مجال المسرح عن نص ما زال مخطوطا.

** جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "المجلس الأعلى للثقافة" – مصر – ١٩٩٩ – عن قصيدة "نقوش على قبر شهيدة".

** جائزة "الإبداع العربي" من: "دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة" بدولة الإمارات العربية المتحدة في مجال المسرح (المركز الثاني) عام ٢٠٠٠ – عن مسرحية "عاصمة للبيع".

** جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الشعر (المركز الثاني) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة" – مصر – الدورة الأولى – ٢٠٠٣.

** جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الرواية (المركز الثالث) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة" – مصر – الدورة الثانية – ٢٠٠٤ – عن رواية "القاهرة – بيروت – باريس".

** جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "نـــادي جـــازان الأدبي" بالمملكـــة العربيـــة الســـعودية في المســـابقة الثقافيـــة لعـــام ١٤٢٣هجرية – عن قصيدة "بقصائدي ويقيني".

مساهمات أخرى

**مشرف على تحرير الصفحة الدينية بجريدة الدستور – مصر (٢٠٠٥ – ٢٠٠٨).

** قُـــدِمت ورقته الفكرية: "ماذا أعطى الإسلام للبشـــرية" في أول مؤتمرات "اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم" (لندن – نوفمبر ٢٠٠٢).

** شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والثقافية في: مصر، لبنان، ليبيا، الإمارات، والعراق.

** يشارك في إعداد برنامج تلفزيوني تاريخي باسم "الفهـــرس" يبث على قناة دريم الفضائية المصرية ويقدمه الإعلامي المعروف الأستاذ إبراهيم عيسى. (٢٠٠٧)

** عرضت فرقة "مسرح دبي الأهلي" الإماراتيـــة مســـرحية "مملكة للبيع" (إعداد وإخراج عبد الله صالح) المقتبسة عـــن مســـرحيته "عاصمة للبيع" – دبي – يوليو ٢٠٠٩.

** مدير مكتب قناة الاتجاه الإخبارية (٢٠١١ –٢٠١٣).

** شارك في عشرات البرامج التلفزيونية والإذاعية الثقافيــــة والسياسية في مختلف القنوات الفضائية المصرية والعربية.

** عضو اتحاد كتّــاب مصر.

للتواصل:

هاتف: ٠٠٢٠١٠٠١٧٦١٢٦٦

E-Mail: mmshikh@hotmail.com